إيناس العباسي

منزل بورقيبة

رواية

دار الساقي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

إيناس العباسي

منزل بورقيبة

دار الساقي

آفاق AFAC

© دار الساقي 2018
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-614-03-2053-6

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13–5290، لبنان
هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى أمّي محجوبة جنّح
صاحبة الحكايات

القسم الأول

الطابق الأرضي

١

ذُهلتُ عندما سمعتُ ما قاله المحامي. كان اليوم غريباً منذ بدايته، فبعد أسبوعين من دفن أبي اتّصلت بي سكرتيرة المحامي الشهير الشاذلي العقربي وأعلمتني طلبه الاجتماع بنا نحنُ وريثات حبيب الياس في الرابعة مساءً من نفس اليوم. التقينا جميعاً في مكتبه بالطابق الخامس من عمارة مصعدها معطّل وتفوح من ممرّاتها رائحة طلاء وسجائر. أدخلتني السكرتيرة مباشرة إلى المكتب حيث وجدت عمّتي وصُوفيا سبقتاني. رحّب بي المحامي مقدّماً تعازيه ودعاني للجلوس على الكرسي أمامه. كانت عمّتي مريم جالسة على كرسيّ بالقرب من النافذة بينما جلستُ أنا وصوفيا متواجهتين أمام مكتب المحامي نتبادل النظرات بصمت. اعتراني شعور بعدم الارتياح ونحن جالستان هناك وجهاً لوجه نتبادل النظرات. كان من الصعب عليّ قراءة وجهها واستنتاج ما يدور برأسها.

حوّلتُ نظرتي نحو المحامي الخمسيني. كانت أول مرّة ألتقي فيها الشاذلي العقربي أشهر محامٍ في الشمال، ذكّرتني ملامحه وشاربه الرفيع بمُمثل نسيت اسمه من أفلام الأبيض والأسود المصريّة. فكّرتُ

في عدد القضايا التي تولّاها وأنا أتأمّل تعارُض بياض شعره مع سواد حاجبيه والتجاعيد التي انتشرت على وجهه. قطع تأمّلاتي عندما جلس باستقامة على مقعده ورفع نظّارته الطبّية التي انزلقت على طرف أنفه قبل أن يتكلم ببطء: "منذ سنتين زارني المرحوم حبيب الياس، بعد تعافيه من الأزمة القلبية الأولى التي تعرّض لها. كان الهدف من زيارته تلك كتابة وصيته التي تنص على التالي: "تعود ملكية بيتي في تونس إلى ابنتي جيهان الياس وتعود الملكية التجارية للمطعم في شيكاغو إلى زوجتي صوفيا بن سليم وابنتي دلال الياس."

قبل أن يتلفظ المحامي بآخر حرف من الجملة التي أوصى لي فيها أبي بالبيت، انتفضت صوفيا واقفة وقد شحب وجهها بصورة مخيفة وكأنّ آخر قطرة دم سُحبت من جسدها في تلك اللحظة. وبيد مرتعشة أشعلت سيجارة دخنتها بصمت قبل أن تقول للمحامي: "هذه الوصيّة باطلة وسأفعل كلّ ما بوسعي لإلغائها".

ومُتجاهلة المنفضة على الطاولة، أسقطت صوفيا سيجارتها بخفّة على الأرض وسحقتها بقدمها ثمّ توجّهت نحو الباب دون كلمة. لكنها توقفت قبل أن تغلق الباب وكأنها تذكّرت أمراً، التفتت وسألت عمتي بحدّة "هل كنتِ تعلمين بهذه الوصية يا مريم؟"

عمّتي مريم التي لم تنبس بكلمة حتى تلك اللحظة تنهّدت وأومأت برأسها نعم.

بدأ كل شيء منذ أسبوعين عندما اتصلت بي عمتي لتخبرني أن أبي مات. حدث هذا في نفس اليوم الذي لم تتوقف فيه الأمطار عن الانهمار في مدينة "شيكاغو الصغيرة" كما أطلق عليها الناس

في التسعينيات. انطلقت الأمطار آخر الفجر بينما كان عمّال مصنع الفولاذ ومصنع الكابلات وعاملات مصانع الخياطة متّجهين نحو أشغالهم، مرتعشين من برد ديسمبر. صاحبت تلك الأمطار رياح قويّة تسرّبت في شقوق المباني وبين أغصان الشجر، مُتلاعبة بكل ما كان على الاسفلت من أوراق جرائد وأكياس بلاستيكية وقوارير "سلتيا" خلّفها الساهرون في الزوايا، حاملة كل شيء معها في دوّامة هوائية تنقلت بسرعة عبر الشوارع قبل أن ترتطم بالنصب الاسمنتي لتحوّل السابع من نوفمبر[١].

لا أحد من المبكرين صبيحة موت أبي، انتبه لغياب الساعة. انساب جميع العمّال على الطرقات شبه نائمين. وحتى بعد أن استيقظت المدينة، فركت عينيها وغسلت وجهها ودبّت الحركة في شرايينها، فتوجّه صغارها إلى مدارسهم ومراهقوها إلى معاهدهم وأسرع أساتذتها نحو فصولهم، لم ينتبه أحدٌ لما حدث في الليل. وكيف لهم أن يعرفوا ولا أحد منهم كان يرفع رأسه للأعلى. فقط عندما رفع طفل رأسه وأشار بسبّابته للنصب المخلوعة ساعته، انتبه الناس وتساءلوا في ما بينهم عن سرّ اختفائها ومغزاه. شعروا بالهواء الصباحي البارد من حولهم ثقيلاً وكاتماً للأنفاس. الأمور تتغيّر من حولهم بسرعة، والله أعلم ماذا سيحدث لاحقاً. مثل نار تمتدُّ في الغابات انتشر الخبر في المقاهي والشوارع والمدارس ووصل إلى ربّات البيوت المشغولات بشؤونهن. وتساءل الجميع عن هويّة الفاعل، مقلبين كافة الاحتمالات. هناك من أعلن

١ انقلاب ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٧. الحركة التي تولى إثرها الرئيس زين العابدين بن علي سدّة الحكم في تونس بعد إزاحته الرئيس الحبيب بورقيبة.

بثقة أن عمّال البلدية خلعوا الساعة وحملوها لقسم الصيانة، وهناك من ادّعى أن لصوصاً استغلوا الإشاعة التي تتحدّث عن إعادة تمثال الحبيب بورقيبة إلى موقعه الأصليّ بدلاً من نصب "السابع من نوفمبر". لا أحد تساءل كيف يُمكن للصوص الاستفادة من سرقة ساعة اسمنتية توقفت عقاربها عن الدوران منذ سنوات. وسرعان ما طُوي الموضوع مثل غيره من المواضيع ونُسي قبل نهاية اليوم. أصلاً لولا الطفل الذي رفع رأسه لم يكن لينتبه أحد.

في نفس صباح ذلك اليوم الذي لم تتوقف فيه الأمطار عن الهطل والذي رفع فيه الطفل رأسه واكتشف غياب الساعة، أخبرتني عمّتي مريم بأن أبي مات. ألقت بالكلمات عبر سمّاعة الهاتف متخلصة منها في جملة واحدة ثم أنهت الاتصال وتركتني أواجه مشاعري وحدي. عندما تلقيت اتصالها، كنت أجهّز نفسي للخروج لمقابلة إحدى صديقاتي لكنني عدلتُ عن الأمر. جلستُ على حافة الأريكة في الصالون ثمّ وقفت كي أخرج ثمّ عدت واستلقيت على الأريكة. أغمضتُ عينيّ مستمعة لصوت انهمار الأمطار في الخارج. كانت السياط المائيّة تلطمُ المباني والأشجار والأرصفة والمارّة المسرعين باتجاه مشاغلهم بينما تنساب دموعي راسمة خطين أسودين تعرّجا ببطء على وجنتيّ. تخيّلتُ أبي تحوّل إلى جسد لا يتحرّك. تخيّلت عينيه مغمضتَين على نظرة مجهولة. تساءلت وأنا أجفف دموعي إن كانت الماسكارا التي أستعملها مضادّةً للماء كما يدّعون في الاعلانات. شعرتُ بالغرابة لأنني كنت أفكّر في أبي وفي زيف إعلانات الماسكارا في نفس اللحظة وبنفس الوضوح. استقمتُ في

جلستي وتطلعت في الفراغ أمامي وشعرت بالغضب الذي خبّأته سنوات بداخلي وتركته يقتات على شوقي واحتياجي المُذلّ لوجود أبي، يتحرّر ويحاول الانفلات من سجنه. نهضت من جلستي وبدأت بركل الأثاث من حولي. قطرات المطر المنهمرة في مزاريب البيت التي تثير عادة أعصابي، شجعتني أكثر. ركلتُ المقعد الخشبي الوحيد في الغرفة بعنف فأوقعته وضربت قبضتي على الحائط في حركة رعناء آلمتني أكثر ممّا خفّفت من غضبي. فاز أبي مرّة أخرى ونجح في الانفلات منّي. لم يختلف شيء هذه المرة سوى أنها كانت المرة الأخيرة. رحل من دون أن نتواجه، من دون أن أتحدّث معه وأتحرّر من غضبي كما حلمت بأن أفعل طيلة حياتي. أصابته سكتة قلبيّة فجر هذا الصباح في مكان ما من العالم، ورحل ببساطة. لم يترك لي سوى فراغ غيابه عن حياتي. ها هو أبي الذي هجرني قبل ولادتي وركلني نحو الوجود بلامبالاة ومضى في حياته، يرحل من دون أن يترك لي كوّة نور لتقودني نحو منفذ الخروج.

حسمت أمري ووضعتُ في حقيبة صغيرة بعض الملابس بطريقة عشوائيّة. ألقيت بمعطفي على جسدي دون أن أزرّره واتّجهت نحو موقف السيارات بخطى مُتردّدة. لن أسمح لنفسي بالتفكير وإلّا فلن أذهب لحضور الجنازة. أدرتُ المُحرّك وقدتُ بحذر سيّارتي البيجو البيضاء موديل ٢٠٥ على الطرقات الزلقة، ترافقني الأمطار في طريقي باتجاه بيت أبي. بفضل الطريق السريع الذي يربط بين تونس ومنزل بورقيبة سأصل إلى المدينة في أقل من ساعة. تساءلت وأنا أستمع للموسيقى المُنسابة من إحدى الإذاعات عن جدوى ذهابي لحضور

مأتم أبي. اتفقت عمّاتي على خروج جثمان أبي من بيته بدلاً من بيت واحدة منهن. ابتسمتُ باستخفاف لسخرية الموقف، فها أنا أعود بعد كلّ هذه السنوات لأرى أبي ميتاً ولأنتظره في بقايا البيت الذي دخلته في الماضي مرات قليلة. أعودُ مثل أيّ غريبة تنتظر مع جمع المُعزّين وصول جثمان حبيب إلياس من أمريكا.

كنتُ أستمعُ لإحدى الإذاعات دون تركيز حين انقطع البث فجأة. قلبتُ القنوات حين أدركت فجأة أن الإرسال انقطع من جميع الإذاعات. فكّرت بأن هذا حصل نتيجة لحالة الطقس السيئة إلا أن البث سرعان ما استؤنف بعد عشر دقائق أو أكثر. ميّزتُ رعشة خفيفة في صوت المذيعة وهي تعلمُ المستمعين بخبر الإعلان عن حالة الطوارئ في البلاد، مؤكدة ضرورة الالتزام بساعات حظر التجوال. لم تنتبه المرأة إلى أنها كرّرت مرّتين خبر إغلاق جميع المنافذ إلى تونس العاصمة ومنافذ الدخول والخروج إلى مُدن سيدي بوزيد وتالة والقصرين، مدن التوتر كما وصفتها. تلت بيانها المقتضب مجموعةٌ من الأغاني الوطنية.

أذهلتني سرعة تطوّر الأمور. الحادث الذي وقع قبل أيّام قليلة وبدا وقتها مثل صخرة ألقيت بعنف في بركة ماء خامدة، توقع الجميع أن تعود بسرعة لركودها، أصبح فعلاً مؤثراً. ما لاح في البداية كردّة فعل غاضبة ورعناء أنتج حركة أكبر خلخلت نظام الأشياء. وإعلان حالة الطوارئ القُصوى في البلاد اعتراف صريح بأن الأمور لن تعود كما كانت. استرجعتُ المشاهد التي نقلتها القناة الوطنية في نشرة استثنائية زار فيها رئيس البلاد الشاب الذي أحرق نفسه. شاهدتُ مثل جميع التونسيين الجسد اليافع ملفوفاً بأكمله مثل مومياء ناصعة البياض وبالكاد

استطعتُ تمييز ثقبين أسودين احتلّا مكان العينين. تساءلت إن كان الشاب قادراً على الاستماع لوعود الرئيس. كان مشهداً سريالياً، الجسد المستسلم على السرير والمُكلل بالبياض قبالة جسد رئيسنا الواقف باعتداد والمتمتع بصحّة جيدة والمُكلل ببدلة رسمية داكنة السواد. مرّ المشهد في صدارة الأخبار الوطنية وفي دقائق قليلة تناقلت صفحات مواقع التواصل الاجتماعي الصورة مراراً وتكراراً. الأيّام التي تلت تلك الزيارة غريبة. أصبح الجوّ العام في البلاد مُتوتراً ومُثقلاً بحالة ترقب غير مفهومة. ثم ألقى الرئيس خطابه الأخير وانفجر كلّ شيء. كان خطابه القشة الأخيرة في فزّاعة القش التي طيّرها الغضب.

في البداية قبل أن يهرب الرئيس وقبل أن تخرج الدبابات لتحرس مبنى وزراة الداخلية المُطوّق بالأسواك الشائكة، قبل أن يُسمع صوت اطلاق "الرصاص الحيّ" في المواجهات، قبل كلّ هذا بأيّام وساعات، وقبل أن يستعمل رجال الشرطة هراوات "الماتراك" وقنابل غاز الليموجين لمواجهة الشباب الذين تمترسوا في الشوارع، في البداية خرجت من أفواه الشباب الكلمات متردّدة ومبحوحة ثمّ اندفعت بثقة نحو السماء مثل ألعاب ناريّة في ليلة صيف. في البداية صرخوا بالكلمات المكتومة لسنوات وألقوا بالأحجار على البوليس دفاعاً عن كلماتهم وأنفسهم. بعد كل هذا كمّموا أفواههم وغطوا أعينهم بأكفهم لحمايتها من الغاز المُسيل للدموع وتمترسوا في شارع "الحبيب بورقيبة" مطالبين بخلخلة نظام الاشياء وبرحيل الرئيس. عندما وصلتُ إلى المدينة، أدركتُ أن إعلان حالة الطوارئ إلى أجل غير معلوم قد يسبّب لاحقاً تأخير عودتي للعاصمة.

٢

عندما وصلتُ أخيراً أمام بيت أبي، جلست داخل السيّارة مُتصلبة وراء المقود. ربّما مرّت ربع ساعة وأنا جالسة دون حركة بينما استمرّت الأمطار في ضرب السقف دون هوادة. لم أحسم تردّدي إلا حين خطرت لي إمكانية خروج إحدى عمّاتي من البيت واكتشافها لي جالسة هناك في الخارج. أدرت المفتاح بنزق وقدتُ السيارة مبتعدة وأنا أفكر بأنه سيكون من الضروري أن أحجز موعداً لدى طبيبي المعالج في أقرب فرصة. سأحتاج إلى أكثر من جلسة بعد انتهاء الجنازة. ربما يجب عليّ الاتصال به الآن فهذه حالة طارئة. أعلم أنني ممنوعة من الاتصال به في غير ساعات الدوام الرسمية كما أنني ممنوعة من إرسال رسائل نصّية أو أي إيمايلات. لم أشعر من قبل بحاجتي إليه بقدر حاجتي الآن ولديّ مبرراتي فهذه حالة طارئة. أخرجت هاتفي وطلبت رقمه الذي أحفظه غيباً. بعد الرنة الثالثة انقطع الاتصال ووصلني صوت آليّ مُسجّل يقول إنه يتعذّر التحصّل على مُخاطبكم في الوقت الحالي. شتمتُ طبيبي ولعنت الساعة التي ضعفت فيها واتصلتُ به. لن ينفعني هذا الغضبُ الآن

في شيء، فكرت وواصلت اللف والدوران في شوارع مدينتي الأم. "منزل بورقيبة"، المدينة التي حملت أكثر من اسم، سمّاها جنرال فرنسي أيّام الاستعمار "فيري فيل" نسبة لاسمه ثم دلّلها المستوطنون الفرنسيون فسمّوها "باريس الصغيرة" عندما عاشوا، أحبّوا، تزوّجوا ورقصوا فيها وعاشت معهم المدينة ليالي حافلة بالموسيقى وبالسهر. يقال إن إديث بياف غنّت في المسرح الصغير الذي ارتُجِل في الشارع خلف مبنى الكنيسة وإن جاك بريل غنّى أيضاً هناك في إحدى ليالي الصيف. وسمّاها لاحقاً الرئيس بورقيبة "منزل بورقيبة" نسبة لاسمه، وسمّاها الناس لاحقاً في التسعينيات "شيكاغو" حين كثرت الجرائم والسرقات فيها.

سأفعل ما بوسعي كي لا أظلّ عالقة مع عمّاتي في بيت أبي. يمكنني التعلل بضرورة ذهابي إلى بيت أمي. لكنني لن أزورها اليوم بكل تأكيد. لا أمتلك الرغبة ولا الطاقة لقضاء هذه الأيام في بيت أمي وزوجها. من المثير للحنق أنه لا توجد هنا فنادق. ليس أمامي سوى حلّ واحد، سأحجز غرفة في أحد فنادق بنزرت، المدينة التي لا تبعد سوى عشرين دقيقة عن منزل بورقيبة.

دخّنتُ آخر سيجارة في علبة "المارس" ثم حسمتُ أمري وعدتُ إلى بيت أبي. نظرت إلى نفسي مرّة أخيرة في المرآة الداخلية قبل أن أغادر السيارة، تعطّرت كي لا تنتبه عمّاتي لرائحة الدخان العالقة بشعري وثيابي. دفعتُ البوابة الحديدية التي بدأ طلاؤها الأسود بالتقشر فاستقبلتني الحديقة التي طوّقت البيت من ثلاث جهات بينما عُبّدت مساحة الجهة الرابعة بالرخام حيث خصّصتها جدّتي

فضاءً للسهر في الصيف. تحوّل لون البيت المتكوّن من ثلاثة طوابق من الأبيض إلى الرماديّ. اشترى أبي الأرض وصمّم البيت بنفسه في الثمانينيات، قبل ولادتي ببضع سنوات. عاش في الطابق الأرضيّ جدّاي وعمّاتي قبل أن يتزوّجن ويغادرن تباعاً وأُجّر الطابق الأول على فترات متباعدة لمستأجرين مُختلفين بينما سكن أبي وزوجته في الطابق الثاني من البيت خلال الإجازات الصيفية. قطع أفكاري صوت نباح حادّ من مكان ما فأخافني. نسيت وجود الكلب. سارعت بالدخول مفترضة أنه كان يجول بحرّية في الحديقة. وجدت عمّاتي في الصالون يبكين بصمت. كُنّ متشحات بملابس داكنة يكشف عدم التناسق بين قطعها أنها ارتُديت على عجل. سلّمت عيهن بتحفظ وككل مرة تأمّلت صغرى عمّاتي جليلة منبهرة بجمالها اللافت رغم شحوبها وخلوّ وجهها من الزينة. بالرغم من أن لقاءاتي بعماتي كانت قليلة في الماضي شكّلت عن كلّ واحدة منهن صورة مبنية من عالم الكارتون، فكنت دائماً ما أتخيّل عمتي نِعمة متنكرة على شكل امرأة بينما هي في الحقيقة ساحرة شرّيرة تلقي خفية بتعويذاتها على الآخرين، وكانت عمّتي جليلة في خيالي جنيّة جميلة وسيّئة الحظ في الحب. كما توّجت عمتي مريم كجنّية حكيمة وطيبة القلب، أقرب إلى أن تكون جدّة الجنّيات إن كانت لديهن واحدة.

بدخولي استعادت عمّاتي بَكَرة الكلام التي ألقت بها كل واحدة نحو الأخرى بحزن ولامبالاة. كان الحديث متقطعاً وعامّاً لا بداية له ولا نهاية. تحدّثت عمّاتي عن التظاهرات وإعلان الطوارئ واستعدن خطاب الرئيس ساخرات من إعلانه عن خفض أسعار المواد الغذائية

الأساسية. "لا يريد الناس قرارات تخديرية تافهة". قالت عمّتي جليلة وهي تتنهّد "مللنا من الوعود، يجب على الدولة أن توفر مواطن شغل للشباب، مساكين يحرقون أحلامهن مثل السجائر الرخيصة التي يدخنونها". سحبت عمّتي مريم بكرة الكلام نحوها وعادت بالحديث عن التفاصيل اللازمة لمأتمه. اقترحت أخذه مباشرة من المطار إلى المسجد الكبير للصلاة عليه ثم الإسراع في دفنه، فبوصوله أخيراً إلى البلاد سيكون مضى على وفاته أكثر من يومين. تساءلت عمّتي نِعمة إن كانت الأمطار ستتوقف بحلول ذلك الوقت وإن كانت التربة المبتلة ستكون صالحة للدفن. ثمّ كأنها تذكّرت وُجودي فجأة، سألتني عن عملي وحياتي في العاصمة. وقبل أن أتمكّن من الرد أضافت بسخرية "هل الرجال في العاصمة عميان كي لا ينتبهوا لجمالك؟ كما ترين، أيّام العمر تطير والموت واقف عند كل زاوية بانتظارنا". غمغمتُ بكلمات لا معنى لها وأنا أفكر في وقاحة طرحها مثل هذا الموضوع الشخصيّ في الوقت الذي اجتمعنا فيه بسبب موت أبي. لم نعلق أنا ولا واحدة من عمّاتي على كلماتها فمات الكلام بيننا.

نظرتُ إلى ساعة يدي وغادرتُ متعللة بأن أمّي كانت بانتظار قدومي. في الباب كدت أصطدم بالكلب الذي كان يلهث واللعاب يتساقط من فمه على الأرض بقطرات كبيرة. ربما كان معتلاً أو عطشاً أو ربّما كان منهكاً بسبب تقدّمه في السن، فهو يحرس البيت منذ سنوات. اشتراه أبي بعد سرقة مجموعة العصافير الخاصّة به وأطلق سراحه في الحديقة موصياً عمّتي بتفقده كل يومين. سُرقت عصافير

أبي في السنة التي ضربت فيها البطالة المدينة وأغلقت فيها الكثير من المصانع. في تلك السنة سرق اللصوص كل شيء يمكن سرقته. انتزعوا الملابس المبتلة من حبال الغسيل، حملوا قوارير الغاز الفارغة المتروكة في الباحات الخلفية للمنازل، سرقوا أحذية المصلين من أمام المساجد وقت الصلاة وسرقوا عصافير أبي تاركين له الأقفاص الفارغة.

قبل خروجي إلى الشارع مررت يدي على جذوع الأشجار المبتلة بالمطر. لمستها واحدة تلو الأخرى، شجرةَ الليمون ثم شجرة البرتقال فشجرة اللوز. هُيّئ لي أنني استنشقت بعضاً من رائحة جدّتي في كثافة الهواء من حولي. كم كانت أمي لطيفة تحبّ هذه الحديقة واعتنت بأشجارها بشغف ووزعت من ثمارها على جيرانها. ومضات خاطفة من صغري أبرقت في ذاكرتي فأحيت شوقي لجدتي وأحيت حلمي القديم بطفولة سعيدة مُتخيّلة لم أحظ بها. خرجتُ كأنني أهرب. ماتت جدتي حين كنت طفلة ومع ذلك ما زلتُ أشتاق إليها كأنها حيّة تُرزق. أقنعت نفسي بعد موتها بأنها انتقلت للسكن في بيت يصعب الوصول إليه. رغم مرور سنوات على موتها كدتُ أناديها عندما دخلتُ البيت ولم أصدّق أنني لن أجدها جالسة على أريكتها المفضّلة، ترتشف قهوةٍ سوداء مُرّة كما تحبّها، بينما تنساب الأغاني من الراديو الذي لا يفارقها طيلة النهار.

كانت أمي لطيفة، كما اعتاد الجميع مناداتها صغاراً وكباراً، امرأة سمراء ممتلئة وقصيرة، تحيط بوجهها الأسمر الذي اجتاحته التجاعيد هالة من الشعر الرماديّ. لا تخرج من بيتها من دون السفساري

الحرير اللهمّ إلّا إذا سافرت، وقتها ترتدي فساتين طويلة أحاديّة اللون فصّلتها وخاطتها بنفسها على آلة خياطة "سنجر" كهربائيّة اشتراها لها أبي حبيب. استحضرت وجهها والوشم الأزرق على جبينها. أتذكر أنني سألتها عنه فتنهّدت ثم أجابتني: "حين بلغتُ وشّموني. ما زلت أشعر بوخز الإبرة الحامية على بشرتي. وانتفخ جبيني ولم تغادر الحمّى جسدي طيلة يومين. ولولا أن المرأة التي وشمتني أسعفتني بكمادة أعشاب بريّة لأسلمت الروح وعمري بالكاد عشر سنوات. كان أناس زمان يُوشّمون الفتيات الجميلات. وتُعدّ البنت غير الموشومة بشعة في عُرف ذلك الوقت". تقول جدتي ضاحكة وتتحسّس الوشم على جبينها.

من الغريب أنني لم أعد أتذكر جيداً شكل الوشم على جبينها. أحياناً أظنّ أنه كان مثلثاً مقلوباً نحو الأعلى وفي مرّات أخرى يتراءى في ذاكرتي شبيهاً بحرف من الحروف الأمازيغيّة. كذلك لم أعد أتذكّر من وجهها بعد كل هذه السنوات سوى عينيها البنّيتين الدافئتين وسمرة وجهها. وأجاهد كي أتذكّر صوتها حين كانت تقول لي "توحشتك يا كبدي."

جمعت أمي لطيفة الضعف بالقوّة بطريقة غريبة. فنفس المرأة التي كانت تواري ضحكتها خلف طرف السفساري وتوقع على الأوراق الرسمية ببصمة من إبهامها المُغمس في الحبر، كانت تاجرة مُعتدّة بنفسها تبيع وتشتري المفروشات والذهب والملابس والسجّاد الملوّن بعد أن تجلبها بنفسها من بلد العجائب إيطاليا. جرت في يديها الأموال وتراكمت تجاربها ومعارفها بالسفر والناس فتوارت

المرأة الساذجة التي كانت بالكاد تعرف كلمات إيطالية تفاوض بها الباعة، وحلت بدلاً منها امرأة واثقة من نفسها.

في أول سفرة لها تجولت أمي لطيفة أول يومين من دون أن تشتري شيئاً. لفتت انتباهها بضاعةٌ معروضة وراء واجهة زجاجية كبيرة، فدخلت. فاصلت البائع على ثمن مشغولات حريرية، فاصلته بكلمات إيطالية أكلت نصفها وتفتّتت مخارج حروفها. لم يفهمها البائع إلا حين أشارت إلأى المشغولات لكنه لم يعطها السعر الذي أرادته. غضبت جدّتي وفي طريقها للمغادرة انتبهت لدجاجة وصيصان كانت ضمن البضاعة المعروضة أمام المحل. حاولت جدتي تفرقتها ودفعها للركض في الطريق نكاية بالبائع الايطاليّ، لكن لا الصيصان ولا الدجاجة المصنوعة من الفخار برحت مكانها، بينما تعالت ضحكات البائع المستمتع.

تحوّلت المرأة الساذجة إلى أخرى جبّارة. ربما كان المال هو ما حرّرها من سلطة جدّي أو مماحكاتها مع التجّار الإيطاليين واستماعها لحكايات زميلات السفر في الليالي التي تقاسمن فيها السكن. استطاعت جدّتي أن تفرد طولها وتنجح من دون مساعدة أحد. كانت جدتي تأتي وتذهب، تشتري وتبيع، تخسر وتربح وهي لا تفك الحرف. تعلمت الإيطالية سماعاً. لم يعترف جدّي يوماً بنجاحها. وبينما كانت تستقبل الجارات في صالونها الذي حوّلته إلى متجر بيتي تعرض فيه البضاعة وتفتحه للجارات في أوقات محدّدة من المساء، كان جدّي يهرب إلى الباحة الخلفية من المنزل. تصله ضجتهنّ فيقلب شفتيه بامتعاض ويواصل ريّ "الورد العربي"

والحبق والقرنفل والنعناع. ثمّ يجلس على كرسي هزاز اشتراه من سوق الأثاث المستعمل، يفرد ساقيه أمامه ويدخن السيجار مستمعاً إلى طقطوقات "حبيبة مسيكة". حين نجحت تجارة جدتي توقف جدي حمّادي عن البحث جدّياً عن عمل. كأنّ نجاحها امتصّ رغبته في النجاح. ثم إن كل شيء كان موجوداً ومتوفراً في البيت، وبناته يعملن، تزوّجت منهنّ اثنتان فلماذا سيعمل من جديد؟ في السنوات التي سبقت نجاح تجارة جدتي، لم يكن جدي قد خسر "محل الجزارة" وباع تجهيزاته فحسب، بل خسر أصدقاءه وعشيقاته وواصل الخسارة في ليالي لعب الورق. لم يستسلم للكآبة لكنه أضاف إلى روتينه اليوميّ جلسة الباحة الخلفية ومتعة السيجار يجلب له مؤونته منه ابنه حبيب كل صيف. يستيقظ متأخراً ويذهب ليشرب قهوته في مقهى "العاطلين من العمل" خلف ساحة الشهداء. كان اسم المقهى Café de Nice لكنهم أطلقوا عليه اسم مقهى Les chômeurs لأن أغلب روّاده عاطلون من العمل. كان جدّي حمادي يقضي ما بقي من الصباح في هذا المقهى، يتحدث مع الآخرين دارساً فرص السوق من خلال أحاديثهم، باحثاً عن فكرة مشروع وعن شريك مُحتمل. لم ينتبه إلا في وقت متأخر بأنه صُنّف وحُسم الأمر. صنّفه الناس كرجل وسيم لا يصلح لشيء، حتى في ليالي السهر والقمار اعتبروه ورقة خاسرة.

وبينما كان جدّي يغرق في روتينه، تاجرت جدّتي لطيفة بكل ما يمكن بيعه للنساء. لم تغامر يوماً ببضاعة رجالية. كانت تقوم بثلاث سفرات في السنة. وحافظت على هذا الإيقاع طيلة عشر سنوات.

مرّتان بالطائرة ومرة بالسفينة حين يكون لديها مبلغ وفير لشراء البضائع الثقيلة والغالية. عندما تسافر بحراً يصبح الشراء مهرجاناً، تشتري كل ما يمكن شحنه في الجزء المخصّص لها في مخزن السفينة. في البداية كانت تسافر مع مجموعة من النساء، خمس أو أربع حسب ظروف المجموعة، يتقاسمن غرفة أو غرفتين في بنسيون ويتقاسمن الطبخ والطعام والغسل والحكايات لبضعة أيّام. يخرجن معاً ويتبضّعن من نفس الباعة ويسخرن من الإيطاليات "الروميات العاريات الفاجرات" كما اعتدن تسميتهن. لكن جدتي حدثتني بأن كل واحدة منهن كانت تتمنّى في أعماقها أن تكون مثل أولئك الإيطاليات الفاتنات. "ولا واحدة منهن صرّحت بهذا علناً، لكنني فهمت هذا من تصرفاتهن وتغيّر ملابسهن حين نعود للبلاد... بيني وبينك يا كبدي الإيطاليات فاتنات، وجوه ملائكية وأجساد ممشوقة تخطف العين" كانت جدتي تقول. وكنت أحب أمي لطيفة وأحبّ نفسي أكثر حين تناديني "يا كبدي"، وأشعر بالدفء يغمر قلبي.

شحنت جدّتي الزرابي الإيطالية بألوانها المنعشة للروح كما وصفتها لي وكما كانت تصفها لزبوناتها. هي التي عملت في شبابها في حياكة "الأكلمة" وبيعها، تحوك الكليم من الأسمال وبقايا القماش وتبيعه مقابل مبالغ بسيطة. كانت جدتي تقول لأيّ مشترية متردّدة: "نحن في عصر الألوان يا عزيزتي" وتضع أمام المرأة قطع البونبون "تذوّقي هذه الحلوى الإيطالية تذوب في الفم ذوبان"، فتضيف المرأة مسحورة "كل شيء إيطالي رائع". باعت جدتي ملابس نوم حريرية وسوتيانات وتبانات من الدانتيلا الملوّنة، مجففات شعر

وأجهزة طبخ إلكترونية وأساور وخواتم ذهبية وقلائد ذهب تتدلى منها كتب ذهبية ثقيلة أوصت صائغاً إيطالياً بأن يحفر عليها كلمة الله بعد أن طلبت من إحدى بناتها رسمها على قصاصة ورق. كانت لا تجلب الذهب إلا حين تسافر جوّاً فترتدي عند الرجوع الخواتم والأساور وقلادة ثقيلة كانت على الموضة وقتها تُسمّى "كوبرا". "ما كل هذا الذي جلبته معك" يسألها موظف الجمارك فتجيب في كل مرّة نفس الإجابة: "للاستعمال الشخصي يا ابني، هذه القلادة هديتي لابنتي، ستتزوّج هذا الصيف، شرّفنا بحضورك". تنظر في عينيه بثبات من دون ابتسامة دافعة باتّجاهه جواز سفرها الذي دسّت بين أوراقه مبلغاً محترماً. تعلمت أصول اللعبة في بضعة أشهر.

كثيراً ما حدّثتني عمّتي مريم عن سفرات جدتي. أخبرتني أنها حين كانت تسافر بحراً كانت تصطحب بناتها معها ليتسوّقن ويحملن معها البضائع. كنّ يتحايلن على المبلغ المسموح بحمله من تونس عند السفر. وكانت النساء في ذلك الوقت عندما يسافرن يحملن معهن خضاراً وتوابل بحجّة أنهن سيطبخن بأنفسهن في غرفهن بالفنادق. كانت الحيلة تنطلي على الجمارك، خاصة في الجهة الإيطالية. كان الأعوان يتمتمون في ما بينهم مقلبين محتويات الحقائب "يا لهؤلاء الريفيات المسكينات، يأخذن الخضار معهن في الحقائب". كانت جدتي وعمّاتي يخبّئن الأموال في "قرون" الفلفل. تفرغ الواحدة منهن الفلفل من بذوره وتلف الثانية النقود، تربط بخيط مطاطي كل مئة ليرة في لفافة تضعها في كيس بلاستيكي رقيق تدسّه في "قرن" الفلفل، ثمّ يضعنه في كيس يعلّمنه بعلامة لا يعرفها أحد سواهن، مرة

يربطن الكيس بخيط صوفي مُلوّن ومرة يتركن عليه لطخة صغيرة بطلاء أظافر.

حدثتني عمتي عن هوس أمي لطيفة بحماية بناتها اللاتي كنّ صبايا جميلات وساذجات يتناوبن المهام بينهن. في ذلك الوقت لم يعرفن أنه يمكن الحجز مسبقاً عبر أيّ هاتف عمومي ولا علمن بوجود خرائط للمدن يمكنهن من خلالها تحديد مواقع الفنادق وأماكن التسوّق التي رغبن في الذهاب إليها. وهكذا في كل مرة يصلن فيها كنّ يُكرّرن نفس الخطوات. "حين تصل السفينة بسلام إلى الميناء، تأمر جدّتك واحدة من بناتها بالبقاء هناك وعدم التحرّك من مكانها ولو خطوة ريثما تذهب مع أخواتها للبحث عن فندق. لا أنسى حكايتنا العجيبة في إحدى السفرات. تركتني يومها لأحرس الحقائب والفلفل المحشوّ بالنقود. وذهبت أمّي مع عمّتيك جليلة ونِعمة للبحث عن فندق، حين خاطبتهن امرأة جميلة شفتاها مصبوغتان بأحمر شفاه بنفسجي وتضع على رأسها باروكة شعر أشقر. خاطبتهن المرأة باللهجة التونسية فتوقفن. كانت جالسة على الرصيف فاتحة ساقيها كاشفة عن كيلوت بنفسجي. ذُهلت عماتك للمشهد. كانت أول مرة يشاهدن فيها امرأة تجلس هكذا في الشارع وكانت تونسية وفي روما. ذُهلن أكثر لإجابة والدتهن عندما سألتهن المرأة إن كنّ يحتجن إلى مساعدة، فأجابتها أمي لطيفة "أجل يا ابنتي، نبحث عن فندق سعره مناسب وقريب من الميناء." ابتسمت المرأة وأجابت بنعومة: "اتبعنني سأدلكن على فندق أسعاره مناسبة وصاحبته صديقتي سأوصيها بكنّ". تبعتها أمي ولحقت بها عمّاتك

مذهولات. لم يفهمن لما تبعت أمهن تلك المرأة الوقحة. وصلن أمام مبنى من طابقين، أطلّ عليهما من إحدى نوافذه رجلان عاريان حتى الخصر. كانا ضخمين تنتشر على أذرعهما وشوم حيوانات ورموز ملوّنة. تساءلت عمّتك نعمة بصوت عالٍ: "هل يتجمّل الرجال في إيطاليا ويزيّنون أجسادهم بدلاً من وجوههم؟". سمعها الرجلان وضحكا بصخب ولوّحا بحماسة مرسلين قبلات في الهواء لصاحبة الشفتين البنفسجيتين. استقبلتهن صاحبة الفندق الخمسينية الأنيقة والبشوشة من وراء مكتب الاستقبال. نقلت لها الفتاة رغبة جدتك في حجز غرفتين لها ولبناتها وشرحت لهن أن ابنتها الثالثة في انتظارها في مكان ما من روما. منحتهن صاحبة الفندق سعراً مناسباً ودفعت جدّتي عربوناً وهي تقول بالتونسية للفتاة سنذهب لجلب حقائبنا ونعود."

تقطع عمّتي حديثها وتشرب شايها الذي برد ثم تُخرج بملعقة صغيرة حبّات الصنوبر التي استقرّت في قاع الكأس. أسألها عن سرّ الفندق وهل عدن. تضحك عمّتي وتمسح دموع الضحك التي تطفر من عينيها: ما زالوا بانتظار عودتنا إلى يومنا هذا. كان بيت دعارة. يومها مشت أمي وكأنها تركض. أخبرتني عمّتاك أنها دفعتهما أمامها وهي تهرول في مشيتها مُحدّثة نفسها "يحبوا يخدموا بناتي، الزوفرة الهمّال[1]".

لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، فقد كانت تتحايل على

١ زوفرة جمع زوفري كلمة من الدارجة التونسية وهي تغيير لكلمة les ouvriers وذلك في صياغة تحقيرية تحوّلت إلى شتيمة مع الوقت.

جهلها. لم تثق بأحد حتى بنا رغم أننا وصلنا إلى الثانوية ونجيدُ القراءة بالعربية والفرنسية. كانت تصف الكلمات بالرسوم والخربشات. فتقول "قد تخطئن في قراءة هذه الرسوم". تفك شريط ضفيرتها وتربطه في سلم مدخل الفندق حيث حجزن. "هذه علامتي كي نعرف الفندق بعد أن نعود من التسوّق". كانت تحفظ الطرقات بصرياً ولا تنسى أبداً مكاناً مرّت منه. حين نعود آخر النهار تقول "إذا وجدت الشريط مكانه فهذا يعني أنه الفندق الذي ننزل به وإن لم أجده فسنعود على خطانا ونبحث عنه". نقول لها مشاكسات "ماذا لو أطارت الريح بشريطتك أو أخذتها طفلة مشاغبة لتلهو بها... يا أمي نؤكّد لكِ هذا فندقنا، "وردة روما"، انظري ها هو الاسم مكتوب". لكنها لم تكن تلتفت لكلام أيّ واحدة منا. لحسن الحظ كُنّا دائماً نجد الشريط مكانه".

٣

في الليلة الأولى بعد موت أبي، حجزت غرفة في فندق "النورس الأبيض" اخترتها عشوائياً في الطابق الثالث. كان الفندق خالياً، ولولا أنني لمحت ثنائياً لظننتُ أنني كنت النزيلة الوحيدة. كانا جالسين في "التيراس" المطلّ على البحر بملابس خفيفة لا تتناسب مع الطقس البارد بينما وقفت أحدّق بهما علانية. كنت مسحورة بمشهد الحب البسيط والعلني المتجلي أمامي. وضعت المرأة السبعينية قدمها في حضن الرجل من دون أن تحرّك شفتيها بكلمة بينما دلّك الرجل قدمها مُتحدثاً بصوت عالٍ. لم أميّز اللغة جيداً، ربما كانت الهولندية أو الألمانية. مشهدهما في التيراس جعلني أبتسم بحزن وفكرتُ في حبيبي وطبيبي. لم يتكبّد عناء الاتصال بي ولم يرسل ولو رسالة نصّية يسأل فيها عن الأمر العاجل الذي جعلني أكسر القواعد وأتصل به.

فور دخولي إلى الغرفة ألقيتُ بنفسي على السرير دون أن أغيّر ملابسي أو أخلع حذائي. راجعت هاتفي مرّة أخرى فلم أجد سوى اتصالين جديدين من عمتي وما من اتصال يدل على وجودي في قائمة اهتماماته. كنت مرهقة إلا أنني لم أتمكن من النوم وتقلبت كثيراً

قبل أن أجبر نفسي على النهوض. تركت الماء الساخن ينساب في الحوض ثمّ سلّمته جسدي. جرّبت الاسترخاء محاولة عدم التفكير في أحداث اليوم. وصلني صوت المطر في الخارج خافتاً ومع الهدوء المُخيّم على الفندق شعرتُ بأنني موجودة في مكان مقطوع عن بقيّة العالم، يجدر بهم إطلاق اسم "الأشباح البيضاء" على هذا الفندق. حاولت التفكير في أمور أخرى فخطر لي ثنائي التيراس... ما الذي يفعله سائحان عجوزان مثلهما في البلاد في هذا الوقت من السنة. لكن ذكرى أبي سرعان ما طفت على سطح أفكاري. استرجعتُ مخزوني من ذكرياتي معه وتسرّبت بينها ذكرياتي عن جدّتي لطيفة. لقد كان التفكير بأحدهما يؤدّي لزاما إلى التفكير في الآخر.

كانت زياراتي لجدّتي لطيفة لا تُنسى. كانت تحتضنني بقوّة وتتحسّس ذراعيّ متمتمة "ما زلتِ جلداً على عظم يا بنت، ألا تطعمك أمّك؟". ترفع ذقني وتتأمّلني طويلاً وكأنها أول مرّة تراني. تجلسني بجانبها وتدسُّ في جيوبي حلوى الكراميل وقطعاً معدنية من فئة الدينار وتتنهّد بعد أن تشمّني وتقول: "تشبه رائحتك رائحة أبيك يا بنت".

تتحرّك نحو غرفتها وتبحث في خزانتها عمّا يمكن أن يسليني، مرايا صغيرة مُرصّعة بقطع بلورية ملوّنة تلتمع في الضوء، طلاء أظافر أحمر جفّ وبهت لونه. تريني بتباهٍ رفاً رتّبت عليه مجموعة قوارير عطر وأمام استغرابي لاحتفاظها بالقوارير الفارغة "أحب جمع قوارير العطر، أحب أشكالها" تعترف بخجل صبيّة أُمسكت متلبّسة بجرم. في كل زيارة تفتح لي خزانتها التي تبدو مثل صندوق

أسرار وكنوز أستمتع باكتشافه كل مرّة. كثيراً ما تسليت بارتداء عقود من اللؤلؤ المزيّف وجدتها تحت فساتين نوم مثيرة تكشف أكثر ممّا تغطي، قرأت أكثر من مرّة قصاصات اقتُطعت من جرائد قديمة سُجّلت فيها مواعيد إقلاع الباخرة نحو إيطاليا. ووجدتُ مجلات موضة قديمة قلبتُ صفحاتها مندهشة لنحافة العارضات وشفاههنّ المصبوغة بالأحمر الفاقع. وجرّبت باروكة شعر طويل ذهبيّ اللون وجدتها في خزانتها. استمتعتُ وأنا أتخيّلُ جدّتي تضعها على رأسها مرتدية فستان سهرة مكشوف الصدر وترقص مثل الراقصات في المسلسلات المصريّة.

كانت جدّتي تنام كثيراً أيّام الصيف. تدسّني إلى جانبها في الفراش في غرفتها الباردة التي تغلق نوافذها من الصباح وتسحب ستائرها الخضراء الثقيلة لتمنع تسلل القيظ إليها. لم أكن أنام. كان العالم السحريّ والغامض للبيت الذي يعيش فيه أبي ولو على فترات متباعدة والبرد المُحبّب لغرفة جدتي يجعلانني في قمّة الصحو. أنسلّ بحذر من السرير مخافة أن أوقظها. لكن جدّتي، قبل أن تطأ قدمي عتبة الباب، تناديني بصوت أثقله النوم: "يا رتيلاء ألن تنامي وتتركيني أستمتع بقيلولتي؟" تأمرني بالجلوس على كتف الأريكة وسحب الستارة قليلاً لأتمكن من مشاهدة مرور السيارات في الخارج بينما تعود هي للنوم.

حين كبرت وكبرت معي أسئلتي لجأت إلى عمّتي مريم أسألها. كانت الوحيدة التي تمتلك أرشيف عائلتي، حكايات أبي وعمّي، مغامرات جدّتي، وأسرار جدّي. حدّثتني عن جدتي كيف كانت صعبة

مع بناتها، وتتعامل مع الأمومة كمسألة جدّية، أساسها المحافظة على بناتها. ربما كانت كذلك لأنها تحمّلت وحدها مسؤوليتهم فجدي لم يساعدها في تربية الصغار. حدّثتني عن المرّة التي عجزت فيها أمّي لطيفة عن السيطرة على القمل الذي اجتاح شعر كل واحدة من بناتها، "جزّت شعورنا بنفس المقصّ الكبير الذي تستعمله في المطبخ. ثمّ جمعت كلّ أغطيتنا وأغلفة وسائدنا وملابسنا في كومة واحدة وسكبت عليها الكاز. لوهلة ظننتُ أنها ستشعل فيها النار لكنها غسلت الأرضية جيداً في باحة البيت ثم وضعت كومة الملابس وسكبت فوقها دلاءً من المياه الساخنة ثم أمرتنا نحن بناتها بأن نخبط عليها بأقدامنا العارية. انزلقنا أكثر من مرّة بسبب رغوة الصابون. كان يكفي أن تنزلق واحدة لنتساقط بعضنا فوق بعض وسط ضحكاتنا. نتخبّط على الأرض عابثات بينما فقاقيع الصابون تتطاير فوقنا. أذكر يومها كيف نهرتنا أمّي عاقدة حاجبيها وقد زمّت شفتيها الرقيقتين قبل أن تنزلق بدورها وتنضم إلينا. ضحكت ضحكتها المجلجلة واهتز نهداها الثقيلان. كان ذلك اليوم من الأيام القليلة النادرة التي رأيتها فيها تضحك من قلبها. الله يرحمها، ذهبت الآن وذهبت معها ضحكتها للتراب، كل شيء ذهب للتراب."

كنت أزور عمّتي مريم بانتظام كل يوم أحد إلى أن اجتزت امتحان البكالوريا وانتقلت للدراسة بكليّة الطبّ في تونس. كانت عمّتي تخصّص لكل يوم من الأسبوع أكلة ثابتة، ويوم الأحد تطبخ فيه عادة كسكسي بالسمك. أدخل فأجدها منهمكة في تنظيف سمك المُرجان أو القاروس. بثلاث خطوات رتيبة تمسك السمكة تنظّفها

من الحسك، وتشق البطن ثمّ تنظفه من الأمعاء باحثة عن البيض بعناية قبل أن تضع السمكة في إناء بالماء. إذا حصل ووجدت شيئاً في جوف السمكة تُعلن بفرح طفلة "وجدت بيضاً يا جيهان، بيض السمكِ لذيذ، بيض السمك رِزق."

أراقب حركات عمّتي بصبر منتظرة أن تبدأ بالحديث وحين لا تفعل ألقي بطُعم فأستدرجها لتحدّثني عن أبي. هل يحبّ السمك؟ تلقي عليّ بنظرة ماكرة وتجيبني: "من؟ حبيب؟ حبيب يحب السمك ويتمتع بالصبر الكافي للجلوس ساعات على حافة البحر لاصطياده. كان ذوّاقةً للطعام يستمتع به، لم يكن يأكل حين يجوع أو ليشبع بل ليستمتع، يقول دائماً إن الطعام فنّ. أول ما هاجر إلى أمريكا درس الميكانيكا وعمل في مصنع للآلات. لكنه تدبّر أمره لاحقاً وافتتح مطعماً Faim de loup. ربما موّله رُويْ الأمريكي. كل ما أعرفه أن أباكِ عنيد وحين يصمّم على تحقيق أمر وضعه في رأسه، يفعل. نجح المطعم واستقبل الكثير من الزبائن ففكر أبوك بأن أخوه أفضل من يساعده. لكن نور الدين أحب السهر والمُقامرة أكثر من العمل. أذكر جيداً أن حبيب ذكر هذا في إحدى مكالماته. والمكالمات في ذلك الوقت كانت حدثاً لا يُنسى، تصلنا على فترات متباعدة على هاتف الجيران، وتكون المحادثات مُشوّشة وتنقطع أكثر من مرّة. كانت الجارة تنادي من وراء الحائط الفاصل بين البيتين "لطيفة أسرعي لديك اتصال". فتلتحف أمي بالسفساري القريب دائماً من متناول يدها، تلقي به على رأسها فيغطيه ويغطي كامل جسمها. تركض المسافة القصيرة التي تفصلنا عن بيت الجيران وحين تمسك سماعة

الهاتف تنسى السفساري ولا تنتبه له يسقط على كتفيها ثمّ يعلق عند خصرها. بيد مرتعشة تمسك السماعة وتصرخ: "آلو... حبيب يا كبدي هل تسمعني؟" فيجيبها حبيْب ضاحكاً: "أسمعك جيداً، لا تصرخي يا لطيفة فصوتك يصل مباشرة داخل قوقعة أذني". في تلك المكالمة اشتكى لها حبيب من نور الدين "ابنك خسّرني يا أمي. سيضيع المطعم من بين يديّ بسبب إدمانه القمار. يلهف غلّة النهار ليقامر بها ولا يعمل. يأتي أول الليل، بالكاد يقف وراء الصندوق ساعة ثم يختفي. يتذمّر العمّال من غيابه وانصراف الزبائن. ابنك سيعرّي رأسي يا لطيفة."

أستمع إلى عمّتي وأفكر ربّما كان إدمان عمّي نور الدين لعب القمار هو أول الخلاف بينهما وخسارة المطعم كانت الشرارة التي أدّت إلى القطيعة. تواصل عمّتي حديثها وهي تغرف الكسكسي في الصحون: "تعرفين في ذلك الوقت لم تكن أمّي تحدثنا بالتفاصيل خاصّة حين اشتدّ التوتر بين ابنيها وبدأت حكاياتهما تتضارب. حبيب يقول ابنك عرّى لي رأسي ونور الدين يقول لا تصدّقيه يا لطيفة حين أعود سأحكي لك حقيقة ما حصل. حين تسمع أمّي ما يزعجها في مكالمة أحدهما تتنهّد وتكرّر نفس الكلام "هذا البطن ابتلائي، أنجب من كلّ لون وشكل. أنجب الأسمر والأشقر ودفنت من أجنتي ما يؤلمني تذكّره. وأنجبتك يا مريم وأنتِ امرأة بمئة رجل. أنتِ سندي في هذه الدنيا يا بِنتي. لكن هذين الصبيّين أتعباني. مختلفان في الشكل وتوأمان في العناد والمزاج كأني حملتهما في بطن واحد رغم السنوات الخمس التي تفصل بينهما."

٤

في الليلة الثالثة بعد موت أبي، خفت الحركة في شوارع منزل بورقيبة قبل الساعة العاشرة ليلاً. ولم تمرّ حافلة مصنع الفولاذ لتوصل العمّال إلى أحيائهم وتحوّل الصمت إلى حجر ثقيل يخمد أنفاس المدينة. عاد معظم العمّال إلى منازلهم سيراً على الأقدام ما عدا قلة منهم امتلكوا رفاهيّة ركوب سيّارات أجرة. لم تبرح الحافلة مكانها في موقف المصنع. فحصها السائق ونادى الحرّاس الذين لم يشاهدوا أحداً يتسلل ويخرّب محرّكها وينفّس إطاراتها ويكتب عليها بدهان أحمر جُملاً رنّانة "توقفوا عن امتصاص دم الشعب"، "الاستعمار خرج فأخذتم مكانه" وجملة أخرى عصيّة على الفهم "تسقط الرأسمالية". لا أحد استطاع تخمين هويّة من كتب هذه الكلمات ومن كان يخاطب بالضبط. ربما كانت الكلمات مُوجّهة لمدير المصنع أو لجميع أصحاب المصانع. ربما كان الفاعل واحداً وربما كان مجموعة، لكنّ شخصاً ما لم ينسَ أن يرسم قرب الباب الخلفي للحافلة قلباً رُشق به سهم وسالت منه قطرات دم. انتبه للقلب الكسير لاحقاً المراهقون حيث تندّروا على رسمة القلب وتساءلوا إن

لم تكن هذه رسالة عاشق لحبيبته. ليلتها سلّم سائق الحافلة المفتاح لإدارة المصنع وعاد إلى بيته مشياً. كان حزيناً ومصدوماً للمشهد، لم يكتف المخرّبون بالمحرّك والإطارات بل كسروا الزجاج الأمامي للحافلة واقتحموها وانتزعوا حشوات الكراسي وسرقوا راديو الحافلة وخرّبوا جهاز التكييف. تحوّلت الحافلة المكيّفة الفخمة إلى جثة من حديد، وبانتظار انتهاء التحقيق حول الموضوع أصبح السائق عاطلاً من العمل.

كنت قد عدت إلى منزل أبي في مساء ذلك اليوم، بعد إلحاح عمّتي مريم ومحاصرتها لي بالاتصالات الهاتفية. حسمت تردّدي بعدما أخبرتني بأن عمّاتي عدن إلى بيوتهنّ ولن يرجعن إلّا عند وصول جسد أبي. وجدت عمّتي مريم وحدها تتطلع في الفراغ. بدا لي كأنها هرمت فجأة بعينيها المنتفختين من البكاء وملابسها السوداء والإيشارب الأبيض الذي ألقت به على رأسها بإهمال. قدّمت لي قهوة سيّئة المذاق وجلست قبالتي. أخبرتني بأن صوفيا هاتفتها وأعلمتها بأنها ستنهي الإجراءات اللازمة لشحن جثمان أبي بمساعدة السفارة التونسية في أمريكا. التابوت سيصل الأربعاء في الحد الأقصى، وستصل صوفيا وابنتها قبله فجر الثلاثاء. تابعتُ حديثها بشرود مكتفية بإيماءات من رأسي لا تعني شيئاً. نظرت إليّ عمّتي بحيرة ثم غيّرت الموضوع وحدثتني عن اختفاء الساعة وكأننا في إحدى زياراتي القديمة لها أيّام الآحاد. حدّثتني عن الإشاعة التي تقول بأن الدولة ستُعيد نصب الحبيب بورقيبة الإسمنتي بدلاً من الساعة "وهكذا سيستعيد 'الزعيم' مكانه القديم ويشرف على كامل

المدينة.» تواريتُ خلف فقاعة صمتي بينما مرّت بذهني ذكرى غائمة لنصب رجل يعتمر طربوشاً تُركيّاً تعلو وجهه ملامح الصرامة والجديّة، وتذكرتُ أنني حين كنت طفلة كنت أخشى المرور أمامه.

سكتت عمّتي عندما انتبهت لصمتي وحدّقت بي، ما أشعرني بأنني مكشوفة أمامها. تهرّبت من نظرتها وتركت نظرتي تغرق في سواد القهوة. لطالما كانت عمّتي قادرة على فهمي وأدّت دوراً مهمّاً في حياتي. حتى إنها دبّرت آخر لقاء جمعني بأبي قبل سنوات في بيتها. كنّا نتحدّث عن أمر ما عندما دفع أبي باب الصالون ودخل. بالكاد جلس معنا عشر دقائق. مرّت سنوات طويلة ما بين لقاء ذلك اليوم واللقاء الأخير الذي سبقه. لا أعرف إن كان وجودي هو السبب الذي جعل زيارته قصيرة. خطر لي أنّ عمّتي التي دبّرت اللقاء بيننا لتردم الهوّة التي تفصل بيننا، لم تخبره بأنني سأكون في بيتها. كان الحديث بيننا فاتراً. بالكاد تكلم معي أبي سألني عن صحّتي وعن أمور الدراسة كأيّ غريبة يلتقيها في بيت أخته ويسألها بأدب عن أحوالها. كثيراً ما استعدتُ ذكرى ذلك اللقاء وتخيّلت نفسي أمرّر يدي على التجاعيد التي ازدادت حول عينيه وفوق جبينه، أحاول بسطها عساها تختفي. وأتخيّل أنني أمتلك في أناملي سحراً يعيده إليّ.

في الماضي حين كانت عمّتي تعلمني بقدوم أبي في زيارة استثنائية خلال السنة، كنتُ حين تنتهي الدروس لا أعود مباشرة إلى المنزل وأهيمُ في الطرقات عساني أراه ولو صدفة. كنتُ أعرف أنه يفضّل الجلوس في مقهى "بلال" وسط المدينة فأمرّ من أمام المقهى مراراً وتكراراً. كنت أعرف أنه يأتي في تلك الزيارات الاستثنائية، لقضاء

شؤون قانونية كتسجيل أوراق شراء وبيع أراضٍ وعقارات، فأمر أمام المؤسسات القانونية والإدارية في المدينة، تسيطر عليّ رغبتي المجنونة في رؤيته ولو من بعيد. لم أكن أسلك طريقي المعتاد، بل أمرّ أولاً بشارع الخرنوب بأشجاره العالية والمتلاصقة التي تحرس العشاق الصغار من أعين الأهل والوشاة. وأرى هناك العشّاق يتبادلون الكلمات والقبلات في الطريق خلسة. لكنني لا أرى أبي في ذلك الطريق. أمرّ أمام مدرسة الراهبات التي تحيط بها أشجار الصنوبر وأستعيد في ذكرى غائمة وجه الأخت ماري تيريز التي كانت تحميني من شقاوة الصغار الآخرين في السنة الوحيدة التي درستها هناك. ولا ألتقيه في ذلك الشارع. وقبل الثانية بعد الزوال، الساعة الرسمية لزيارة المرضى ألاحقُ بنظري زوّار المستشفى المتجهين إلى مستشفى المدينة، عساه يكون بينهم. يختار بعض الزوّار طريقاً مختصراً للوصول أبكر وتمضية وقت إضافيّ مع مرضاهم. لا أحد يعلم من كان أول شخص استعمل الثقب في الحائط الخلفي للمستشفى وتسلل من هناك لزيارة أحد المرضى لكن الكثير من الزوّار المستعجلين اعتمدوا ذلك الطريق وأمّي كانت واحدة منهم. لكنني لم أرَ أبي يوماً بين جمع الزوّار المتسللين ولا جمع الزوّار المنتظرين أمام البوابة الرئيسة.

حين كانت أمّي تصطحبني معها لزيارة أحد المرضى كثيراً ما غافلتُها وذهبت ناحية الأدراج التي تقود إلى الغابة القريبة من المستشفى. أصعد درجتين في كل مرّة قبل أن ينتهي وقت الزيارة. كل مرّة أعدّ الأدراج الاسمنتية التي بدأت أطرافها بالتآكل بفعل الزمن

والتي بُنيت في عهد الاستعمار. وأنسى العدّ فور رؤيتي للغابة أمامي تفتح ذراعيها لاستقبالي... لم أخش يوماً أن أتوه داخلها ولا أن يخطفني أحد السكارى الذين يجلسون هناك ليشربوا. يتسرّبُ الضوء من كوّة بين الاشجار فيضيء طريقي، ضوء شبيه بالضوء الذي أراه بعينين مفتوحتين تحت سطح البحر بينما أحاول كتم أنفاسي لأطول وقت ممكن. من أجل تلك الغابة كنت أحب مرافقة أمّي في زياراتها للمستشفى. كنت أمقتُ انتظاري في الممرات الموقعة بالأنين وبصراخ الصغار الضجرين ورائحة الغثيان المنتشرة في المكان. وأنفر من الوجوه القلقة والمكفهرّة للزوار. كلما اصطحبتني أمي معها دعوتُ الله أن يكون المريض في عنبر جديد لم تسبق لنا زيارته من قبل لأكتشف جزءاً جديداً من العالم السحري للغابة. حتى إنني رسمتُ خريطة للمستشفى وللغابة، عنبر مرضى القلب في المدخل بعده عنبر الرئتين فعنبر الكلى ثم صيدلية المستشفى وعنابر أخرى لسوء الحظ لم نزرها. وفي الأعلى، عند سفح الجبل الذي يستند إليه المستشفى وغابته، كان هناك ولا يزال عنبر الأطفال. لم أذهب إلى هناك إلّا عند ولادة أمي طفلها الثالث. ذهبت مع خالاتي لرؤية أخي غير الشقيق الذي وُلد قبل الموعد وأمر الطبيب بوضعه في الحاضنة شهراً. عندما دخلنا قاعة حديثي الولادة، شعرت كأنني أدخل عالماً سرّياً مبنيّاً على الوشوشات الهادئة للأحلام الخفيّة للقادمين الجدد لعالمنا. يومها تساءلت إن كان هؤلاء الأطفال يحلمون وبماذا كانوا يحلمون. هدوء ملائكي خيّم على القاعة المستطيلة التي صُفت بها حاضنات موصولة بأنابيب السيروم لتغذية الصغار. في ذلك المساء

البعيد وبينما كان قرص الشمس البرتقالي يغرق في بئر العتمة ببطء، في تلك اللحظات رغبت بشدة في الانتماء إلى ذلك العالم السحريّ المُظلل بالبرتقالي، عالم الصغار الذين ينبشون أناملهم الطريّة في يدي طالبين المساعدة، تمنّيت أن يحتاجني كل الصغار بدون استثناء وأن أساعدهم. وهكذا قرّرت أنني أريد أن أصبح طبيبة أطفال بدلاً من عالمة نباتات. يومها قرّرت أن زور أبي وأتحدّث معه حين يعود في إجازته ذلك الصيف.

سأتغلب على قشرة الحياء كما تقول أمّي، سأقشرها وأنزعها عني وأطلب منه بدون خجل أن يتكفل بمصاريف دراستي ويحقق لي حلمي بالالتحاق بكليّة الطب. لم يحصل أن رفض لي والدي طلباً لأنني لم أطلب منه يوماً شيئاً.

على جانبَي الطريق الفاصل بين مدرسة الراهبات والمستشفى شيّد الفرنسيون منازلهم وغطوا سقوفها بالقرميد الأحمر. وفي نقطة ما بين هذه المنازل وبين مدرسة "سحنون ٣" حيث كنت أدرس، كانت توجد حفرة كبيرة لم نفهم يوماً نحن الأطفال من حفرها ولماذا حفرها بذلك الشكل والعمق. لم يخطر ببالنا أن نسأل أحد الكبار عن قصّتها. أذكر أننا كثيراً ما ذهبنا نحن الأطفال وقت الفسحة لنتزحلق داخل الحفرة. نثبت حقائب الظهر على حافة الحفرة ثم نجلس عليها متشبّثين بأطرافها قبل أن نندفع نحو الأسفل تسبقنا صيحاتنا. لكن الحفرة تحولت يوماً بعد آخر إلى مكب للكراكيب التي يحاول الناس التخلص منها بمختلف الطرق. كثيرة وغريبة الأشياء التي يريد الناس التخلص منها، يضعونها في الطريق وفي الزوايا

المظلمة للشارع في الليل خلسة متوقعين أن أحدهم سيأتي حتماً ويأخذها. لكنهم يجدونها بانتظارهم في الصباح في نفس المكان حيث تركوها. يستمرّون في فعل هذا إلى أن يبدأ أحدهم بدفع القطعة إلى الحفرة، يتذمّر الآخرون من صنيعه ثم سريعاً ما يقومون بنفس الشيء ويتخلصون من كراكيبهم بدفعها نحو الحفرة. هكذا كنا نتزحلق ونكتشف يوماً بعد يوم أشياء غريبة مثل أريكة جلدية سوداء تقافزنا عليها لأيام حتى مللنا، وكرتونة كبيرة تحتوي على مجلات بالألمانية تصفحناها وتركناها حين وجدنا بها صوراً لمادونا عارية. واصلنا الذهاب إلى الحفرة إلى أن وجدنا الساق. كنّا قد بدأنا سباق التزحلق بالحقائب، من يصل أولاً من دون أن يفلت حقيبته أو يقع فهو الفائز. حين صرخت سونيا "ما هذا؟" مشيرة بسبّابتها المرتعشة إلى شيء يلتمع تحت أشعّة الشمس الحادة. اقتربنا مذهولين من الشيء الغريب حين قطع أيّوب الصمت وصرخ "ساق! إنها ساق رجل" انطلقنا مذعورين كل في اتّجاه. ركضنا نحو حافة الحفرة صعوداً من دون أن نلتفت، مذعورين مثل طيور فرّقها رصاص الصيّاد. ركضنا ما عدا أيّوب. اقترب من الساق وأخرج سكينه الـ couteau suisse الذي يتفاخر به في كل مناسبة واقترب بحذر من الساق ونخزها. لم يحصل شيء فتجرّأ ولمسها بيده مُعلناً أنها ساق بلاستيكية وأننا مجرّد حمقى صغار! عدنا أدراجنا متهيّبين من القطعة البلاستيكية التي التمعت تحت أشعة الشمس. مرّ وقت الفسحة وانتهى بينما كنّا نتباحث في ما بيننا عن سرّ تلك الساق ونبحث عن تبرير لتأخرنا الجماعي... "ربما ألقى بها أحدهم من المستشفى بعد أن مات

صاحبها" هتف أحدنا. "أعتقد أنها من بقايا الحرب" قال أيّوب بمنتهى الثقة. سألته مستغربة: "ما معنى حرب؟". "مثل الحرب التي في فلسطين"؟ سألت ريم. "لا هذه بالتأكيد ساق من أيّام الحرب العالمية، ربما توجد مقبرة تحت هذه الحفرة، ربما هذه الحفرة هي أثر قنبلة ألمانية"، قال أيّوب بمنتهى الثقة. لم نفهم عن ماذا كان يتحدّث لكن ذكرى تلك الساق البلاستيكية تحوّلت في عقلي إلى علامة استفهام اسمها حرب.

٥

في الليلة الثانية بعد موت أبي جلسنا في الصالون البارد ندخن بشراهة من دون أن نتكلم. كانت أول مرّة أشاهد فيها عمتي تدخن. بدت امرأة مختلفة في الظلّ الشاحب لضوء الصالون. بعد أن أجهزنا على آخر سيجارتين بالعلبة نهضت وقادتني إلى إحدى غرف النوم "وضعتُ لك على السرير منامة نظيفة ربما كانت قصيرة قليلاً لكنني أزن أنها ستفي بالغرض، الليلة باردة ستجدين المزيد من الأغطية داخل الخزانة". سكتت لوهلة ثم أشارت بيدها للسرير بيدها فانتبهت إلى وجود شيء بنيّ اللون على الفراش "أحضرت لك 'الكاناويطا'. عندما تنهين قراءة الرسائل أعيديها لي". لم أعرف عن أيّ رسائل كانت تتحدث. بالكاد أغلقت الباب وراءها حتى اندفعت نحو هذه الكاناويطة التي لم تكن سوى صندوق خشبي، ساقه الرابعة مكسورة. "صندوق أعرج" تمتمت وابتسمتُ. كان للصندوق قفل علق به مفتاح صغير نُقشت عليه تعريشات رقيقة، تنهّدت بارتياح حين استجاب عندما أدرته في القفل. وجدت داخل الصندوق الكثير من الأوراق والوثائق والصور. احتفظت عمّتي بكل

ورقة قدّرت أنها ثمينة. شهادة ملكيتها لبيتها، عقد زواجها، شهادات ولادات أطفالها ورسائل وكومة من الصُور. وجدت قنينة شبه فارغة تراقصت بها كمّية صغيرة من العطر. شممت الرائحة وقرأت الاسم على القنينة الهرمية، Trésor. تسللت بقايا الرائحة النفّاذة إلى عقلي. ملمس الصور ناعم وورقها أكثر سماكة مقارنة بالصور العادية وعند زواياها انحناءات. قرّبت الصُور من أنفي، كانت قد تشربت رائحة العطر. وجدتُ بين الصور الفوتوغرافية صوراً قديمة بالأبيض والأسود وأخرى ملونة. خمّنت أن أغلبية الصور التُقطت في الخمسينيات والستينيات، صور لأبي وعمّي نور الدين، صور لعمّتي مريم، صورة لجدتي لطيفة مع امرأة أجنبية وطفل صغير في عربة أطفال. وجدت صورة شمسية لعمّتي مريم شابة جميلة بقصّة شعر "كاريه" وغُرّة جانبية ونظرة حالمة تشبه نظرة فاتن حمامة، في الصورة ترتدي عمّتي قميصاً أبيض رُشقت "خُمسة" ذهبية على جهته اليسرى. وجدت صور زفافها وقد ارتدت فستاناً أبيض من الدانتيلا أبرز تكوّر نهديها الصغيرين ونحولها. دُهشت حين رأيت بعدها صورة من حفل عائلي، ترتدي فيها عمتي بدلة رقص شرقيّة برتقالية اللون، وفي الصورة يحيطها جدّي حمادي بذراعه اليسرى بينما تمسك يده اليمنى سيجاراً. في الصورة الملوّنة بدت عمتي امرأة ناضجة تفيض الأنوثة من وجهها واكتسب جسمها بعض الوزن بينما لاح جدّي في الصورة مثل البرجوازيين في الأفلام القديمة. لم أعرف جدّي حمادي إلياس كثيراً. الأبرق الذي لطالما حدثتني عنه عمّتي مريم. آخر ذكرى لي عنه، زيارتي له على فراش الموت في

عنبر مرضى الرئة. كنت وقتها طفلة لا أنتبه إلى خطوات الموت حين تقترب. رأيت جدّي مستلقياً على سرير في غرفة تقاسمها مع مريض آخر ظلّ يئنّ طيلة وقت الزيارة، بينما استلقى جدي بصمت، شبيهاً بخشبة رفيعة تيبّست من الشمس. كان وجهه مُسودّاً، فقط عيناه الزرقاوان أضاءتا المكان من حوله. اليوم حين نظرتُ إلى صورته وابتسامته الواثقة تذكرتُ بريق عينيه وفهمت لماذا سُمّي الأبرق.

كانت عمتي دائماً تبدأ حديثها بالترحّم عليه، وتذكر جملته الشهيرة التي يفتتح بها وقت العشاء: "إن كان لديكم كلام في أفواهكم فلا تحشوها بالطعام قبل أن تتخلصوا من هذا الكلام! سمّاه الناس "أبرق" لأنه أبيض البشرة وعيناه بزرقة السماء تبرقان في ضوء الشمس. كان يجلس على رأس الطاولة وينفث باستمتاع دخان السيجار المُقلم، وحين ينتهي أخيراً نباشر بتناول الطعام. السيجار ترف عرفه جدّك حمّادي بعد أن هاجر ابنه حبيب إلى أمريكا البلاد البعيدة التي عرفها الناس من أفلام الكاوبوي التي اجتاحت قاعات السينما.

بعد أن هاجر ابنه وبدأ يرسل بانتظام حوّالات مالية معتبرة، أصبح جدّك حمّادي يعرف أمريكا جيداً حتى إنه ادّعى زيارتها. يحدث الضيوف في البيت والخلان في المقهى في ليالي القمار. ويصف لهم شيكاغو بدقة من عاش فيها. يصف طرقاتها النظيفة ومبانيها العالية ونساءها الفاتنات بسيقانهن الطويلة المشدودة وتنانيرهن القصيرة. وحين يسمع حبيب حديثه صدفة يضحك ضحكته الجذلى مستمتعاً بخيال أبيه الجامح الذي شيّد بالكلمات والحكايات مدينة كاملة

من دون أن يراها ومن دون حتى أن يتحرّك من مكانه. شيّد عالماً كاملاً معتمداً على البطاقات البريدية التي كان يرسلها ابنه من وقت إلى آخر."

أتذكّر كلام عمتي مريم وأنا اقلب البطاقات الموجودة بالكاناويطة، بطاقة صور فيها برج وفي إحدى زواياها كتب برج "ويليس"، بطاقة أخرى لمشهد غابة ساحرة وبحيرة تتهادى على سطحها بجعة وحيدة. أقلب البطاقات وأقرأ ما كتب على ظهرها "إلى مريم والعائلة مع حبي".

"حدثيني عن جدي حمادي أكثر" كنت أطلب منها بصوت خافت، تتنهّد عمتي وتواصل: "جدك كان متحدثاً بارعاً وصاحب نكتة. يحب أن يكون محور الجلسة. سواء في البيت أو في المقهى. كنّا نتسمّر وراء الباب لنستمع لحكاياته الممتعة أنا وعمّاتك: "أنا أيضاً سافرتُ في شبابي إلى النرويج، بلد لم يسمع عنه أحد من قبل. ربما كانت فوق ألمانيا أو تحتها، لا أحد يهتم بالخرائط وقراءتها. بلاد بيضاء اللون باردة وساعات النهار فيها قليلة. البرد فيها ذئب عجوز من دون رحمة يغرس أنيابه في العظام مباشرة. نساؤها رائعات بعيونهن الملوّنة وبشراتهنّ الحليبيّة. لكن اللغة هناك مشكلة كبيرة، حاجز يصعب عبوره للوصول إليهنّ. لتتعرّف إلى نرويجية حقاً، عليك أن تتحدّث لغتها أو أن تتحدث على الأقل بلغة الأمريكان. اكتفيت بأقدم لغة عرفها العالم، لغة الإشارات والابتسامات. للأسف لم ينتج عن محاولاتي المتكرّرة سوى رقصة واحدة مع فاتنة نرويجية. في تلك الرقصة تمكنت من تحسّس البياض الطريّ وانتهت الرقصة بضحكة

ونظرة شفقة من الصبيّة. سأتذكّر ما حييتُ تلك الرقصة في ليالي الشتاء الباردة، الجسد الفارع، الذراعان البضّتين، العينين الزرقاوين الشفافتين مثل قطرتي ماء والشرر الناري المنبعث من جسدينا "مْرا لهلوبة شعلة ما تطفاش في عقلي".

"كانوا أربعة شباب توانسة ذهبوا ضمن الإطار الفنّي التونسي الذي أرسل بعد الاستقلال للتدرّب في أحد المصانع بالنرويج كي يصبحوا فنيّين متخصّصين في صناعة الحديد والفولاذ. حين عاد جدك عمل في أحد المصانع ثم سرعان ما غيّر رأيه. لم يُحب الحديد المتوهّج يسيل ذائباً قبل أن يبرد ويتكوّن حديداً. لم يحب هدير الآلات ولا صمت العمّال ووجوههم المتوهّجة بحرارة الصهيد المذاب. وفي اليوم الذي قطعت فيه آلة يد عامل شارد أمامه لم يصمد. صرخ جدّك مرعوباً من مشهد الدم المتدفق بغزارة، قبل أن يُغمى عليه بجوار العامل المصاب. ما الذي حصل بعدها، من حمله، كيف حملوا اليد المقطوعة، ومن حملها، لا يذكر شيئاً. يذكر فقط أول جملة قالها عندما استيقظ في غرفة العمال "لم أخلق لهذا العمل". لأيّام ظلّ يردّد نفس الجملة وكان الجميع حوله يقولون له نفس الكلام "يا رجل قوّي قلبك، راتب شهري جيّد ومضمون، ثابت مثل المسمار في الحائط" فيجيب من دون تردّد: "لا أريد هذا المسمار، تركته لكم".

أصبح قصّاباً بين ليلة وضحاها. افتتح محلّ الجزارة وسط المدينة وجلب لحوم الخراف الطريّة من الأرياف والمراعي. ديّن نصف سكّان المدينة لحماً طريّاً كي يكسبهم زبائن دائمين. ديّن واستدان كي يتمكن من تلبية مشتريات كل امرأة ضحكت له. تفطن أنه كان

يغرق لكنه لم يتوقف، كان شبيهاً بشخص علقت قدمه في بحيرة رملية وبدل أن يتراجع ويسحبها حين كان قادراً على ذلك، تقدّم خطوة أخرى. كان يعود آخر النهار حاملاً سجلاً بأسماء الدائنين والمتديّنين. لم يتوقف إلا حين أمره ابنه حبيب بإغلاق محل الجزارة لأنه سيتوقف عن مساعدته بإرسال الحوالات. أغلق على نفسه محلّ الجزارة بجدرانه الوردية، وجمع الخطافات الحديدية التي كان يتدلى منها لحم الذبائح الطازج. نزع الإطار الذي علقه في صدارة المحلّ والمكتوب عليه "يا فتّاح يا رزّاق" وهو يبكي. حاول بيع كل ما يمكن بيعه دون جدوى. كانت البلاد فقيرة والناس أكثر فقراً. كانت البلاد تفرك عينيها بعد سبات الاستعمار الطويل وتحاول علاج نفسها من الأميّة والأمراض والقمل وكل ما نهش الناس ونُسب للقضاء والقدر.

أمل جدك حمّادي أن يبيع على الأقل ثلاجة اللحوم الكبيرة التي اشتراها بالتقسيط. ولكن من كان يحتاج إليها في ذلك الوقت؟ حمّلها على عربة جرّها حصان نشيط وأوصلها الى البيت. ورغم ذلك لم يتوقف عن حمل دفتر سجلاته تحت إبطه طوال أشهر، آملاً أن يخجل هذا المتدينين ويدفعوا ما عليهم. لكن لا أحد فعل. ما عدا بعض الجارات قايضن ديونهنّ بالبيض وعلب السكّر وأكياس الشاي، لم يُحصّل شيئاً. واصل حمل سجله تحت إبطه وظلّت الثلاجة قابعة في الحديقة تنتظر مشترياً لا يأتي. سرعان ما تحوّلت الثلاجة إلى سكنٍ للحشرات والفئران وبنهاية تلك السنة هدّدته جدتكِ بإلقائه مع ثلاجته خارج البيت إن لم يتخلص منها."

بأصابع مرتعشة قلبتُ بقيّة الصور متأمّلة الوجوه المبتسمة. وبعد مشاهدتها كلها، عدت ونظرت إلى كل صورة على حدة. رأيت أبي في صور وحده مبتسماً بثقة متكئاً على مكتب ورأيته في صور أخرى في أحد الصالونات جالساً مع آخرين يضحك ويرفع نخباً. رأيته في الصور شاباً في الثلاثينات من عمره أسمر وطويلاً وشعره مرتب بعناية متبعاً موضة السبعينيات، سوالف طويلة ولحية مشذبة بعناية غطت وجنتيه فبدا وجهه ممتلئاً. ورأيته في صورة يحيط بذراعه كتفَيْ امرأة شاحبة البياض، ترتدي فستاناً قصيراً يبرز جمال ساقيها. وفي صورة أخرى وقف أبي مع نفس المرأة وبجانبها رجل آخر لا أعرفه. قلبتُ الصورة وقرأتُ الأسماء بالترتيب حبيب، كارول، نور الدين. تبدو نظراتهم مشتّتة في الصورة، لا أحد ينظر مباشرة إلى آلة التصوير. كانت الصورة في حديقة ما حيث بدا الضوء النهاري ساطعاً. أدقق النظر في المرأة ولا أستطيع اعتبارها جميلة. كانت ترتدي معطفاً بنّياً يصل حتى ركبتيها وحذاءً بنّياً ذا ياقة عالية غطى ساقيها حتى تلامس مع طرف المعطف. وكأنها تريد إخفاء نفسها، فكرتُ.

صورة وحيدة من زفاف والديّ ومعهما عمّتي مريم وزوجها وطفل صغير أفترض أنه ابنهما، صور أخرى لأبي في زفاف عمّتي جليلة وصورة لأبي وهو يحمل بحنُوّ رضيعاً بين ذراعيه وينظر إلى الكاميرا مبتسماً بسعادة. شككت للحظة في أنني الرضيعة ثمّ قلبت الصورة وقرأت المكتوب "١٩٧٠ ولادة مريم الصغيرة". صورتان لعمّي نور الدين، في الصورة الأولى التي كانت بالأبيض والأسود كان واقفاً يفتح باب سيّارة بينما مالت السيجارة العالقة بين شفتيه وكان

قد خلع قفازَ يده اليمنى ليضع المفتاح في الباب وبدا شعره الناعم مسرّحاً بعناية وملابسه الشتوية أنيقة، سترة صوفية سوداء وبنطال أبيض أو ربما كان بيج. في الصورة الثانية والمُلوّنة أمسك عمّي نور الدين أيضاً بسيجارة تصاعد منها خيط دخان رفيع، كان جالسا في صالون بيته يقلب ألبوم صور. هذه الصورة بالذات أدهشتني، كان من الممتع رؤية نسخ من صور سبق أن رأيتها في الألبوم العائلتي لعمتي مريم. في ألبوم عمّي نور الدين رأيتُ صورة لجدتي لطيفة ولاثنتين من أخواته البنات، عمّتيّ جليلة ونعمة بملابس أنيقة وضفائر تتدلى على الجانبين، وبجانب صورتهما صورة لعمّتي مريم في المستشفى، يمسك زوجها المبتسم بكتفيها بينما تحمل طفلهما الأول بين ذراعيها.

عاودتُ النظر إلى صورة كارول أمام مسجد عقبة بن نافع في القيروان. لم يكن معها أبي ولا أخوه، بل جدتي لطيفة وأمامهما عربة طفل. ارتدت المرأة فستاناً صيفياً طويلاً مزيّناً بورود كبيرة وقبّعة من القش، بينما تلحّفت جدتي بنفس السفساري الحرير الأبيض اللون الذي تحتفظ به إلى اليوم عمّتي مريم في كيس بلاستيكيّ شفاف من دون أن تغسله أملاً منها بالحفاظ على رائحة أمّها. ووجدت صورة تنحني فيها كارول على جيتارة بحنوّ بينما عمّي نور الدين يعانقها من الخلف.

القسم الثاني

نافذة في الطابق الثاني

١

لن أغادر هذا البيت مهما حصل.

عند الثامنة مساءً، الساعة الرسمية لحظر التجوال، يتمترس "باندية"[١] الحيّ عند منافذ الدخول والخروج مشعلين نيراناً صغيرة. أقف كل ليلة في ظلام الغرفة وأراقب تحرّكاتهم من وراء الستائر. كل ما أخشاه أن ينتبهوا بأننا وحدنا في البيت أنا ودلال. وعدني أخي بأن يأتي لقضاء الليل معنا في البيت.

منذ أعلنوا عن حالة الطوارئ في البلاد، كل ليلة وعند اقتراب ساعة حظر التجوال تُغلق جميع المحالّ والبيوت أبوابها ويختفي الناس من الطرقات. يهيمن على الأحياء هدوء مريب سرعان ما يبدّده هرج شديد. يتجمّع شبّان الحيّ بحماسة، ينجحون بعد صخب وكلام كثير في تقسيم أنفسهم إلى مجموعات حراسة، تحرس كل مجموعة منها منفذاً من منافذ الحيّ... كانوا يذكّرونني بالصغار الذين يقلدون رجال العصابات في الأفلام الأمريكية بهراواتهم وعصيّهم التي يلوّحون بها في الهواء بتباه. وكل ليلة يتكرّر نفس المشهد، يهتفون مهللين

١ باندية: زعران تحوير لكلمة les bandits الفرنسية.

ومصفقين عندما ينجحون في إشعال نار يلتفون حولها فتتراقص خيالاتهم حولها. أصلاً لا أفهم السبب الذي يدفعهم لإشعال النار.

البيت بارد جداً الليلة. ما زال نظام التدفئة مُعطلاً ولم أنجح في إيجاد من يصلحه. ربما يشعل الشباب في الخارج النار بسبب البرد، فكرتُ وأنا أراهم يقرّبون أكفهم العارية من الشعلة االبرتقالية. أقف كل ليلة وراء النافذة في الطابق الثاني حيث نقضي الليل أنا ودلال احتياطاً من هجوم اللصوص الذين انتشرت حكاياتهم. لا أستطيع من موقعي تمييز وجوه الشباب فقد كمّموا أفواههم وثبتوا قبّعات معاطفهم على رؤوسهم. تقف أحياناً دلال بجانبي وراء النافذة وتسألني هامسة إن كانوا هنا لحماية الحيّ كما يدّعون أم هم اللصوص. سيجنّنني الانتظار، نحن فعلياً عالقتان هنا. ما بين انتظار موعد اجتماعنا أمام المحكمة لتصفية مسألة الوصيّة ورغبتي في العودة بسرعة لاستئناف عملي وحياتي في شيكاغو، تابعتُ أخبار المطار بقلق. غادر الأجانب البلاد أفواجاً، شاهدت في نشرة الأخبار طوابير الذين غادروا مبكرين فور انطلاق الأحداث كما شاهدت بعدها بأيّام تكوّم المغادرين الذين وصلوا بعد يوم من إلغاء شركات الطيران رحلاتها الجوّية نتيجة للأوضاع الأمنية السيّئة. أصابت الفوضى والجنون جميع مفاصل البلاد. أتفهّم ذعر الأجانب ومغادرتهم للبلد. فالحديث عن انتشار قناصة على الأسطح ووراء النوافذ يتصيّدون الناس مثل العصافير، لأمر مرعب. إن مجرد التفكير في احتمال وجود قناص متمترس في مكان ما بالبيت المقابل مُصوّباً مدفعه في الظلام نحو رأسي أو رأس دلال، يجعلني أشعر برجفة في

نخاعي الشوكي وبالوهن في ساقيّ. لكنني لا أظهر خوفي أمام دلال وأتصرّف مثل العادة. منذ يومين، وبعد أن ألغيت جميع الرحلات وسرت شائعة تتحدث عن إغلاق المطار إلى أن يأتي ما يخالف ذلك، أشعر بأنني مثل أرنب وقع في الفخ. اللعنة على هذا الحظ.

الأيام هنا بطيئة مثل يوم أحد لا نهاية له ولا أعرف كيف أشغل نفسي فيه. أفكر في حبيب بحزن وبغضب في نفس الوقت. أنا حزينة لموته وحاقدة عليه بسبب الوصيّة التي تركها. أفكّر في الجليز الأبيض الذي يغطي كومة التراب التي دُفن تحتها، فيتراجع غضبي ويحلّ مكانه الحزن. حاولتُ تسجيل موقع قبره جيداً في ذاكرتي. ففي غابة القبور تلك قد يُجرف قبر حبيب بعد سنوات بعيداً عن قبريْ والديه اللذين فرّقت بينهما القبور. يخطئ من يترك فراغاً بين قبرين، فبعد مرور سنوات وربما أشهر أو أيّام ستحتل الفراغ قبورٌ جديدة.

كل ليلة أتحسّس مكان حبيب الفارغ بجانبي في الفراش، ولا أنام. أتسمّرُ وراء النافذة لأراقب ما يحدث في الشارع وأنا أفكر في موته وموتي. أحرص على عدم التدخين كي لا تنبئ جمرة سيجارتي الشبّان في الخارج بوجودي. أفكر في كلام المحامي الذي وكّلته ليهتم بموضوع البيت والوصيّة. لا يمكنني الاستسلام بهذه السهولة. التاريخ يعيد نفسه... ما حصل مع أبناء رُويْ يحصل لي الآن. لا أفهمُ كيف فعل حبيب هذا بي وبدلال. الله أعلم أين اختفت ابنته وما الذي تخطط له بالضبط. من بعد يوم الإعلان عن الوصيّة غادرت البيت وغابت مثل طابع سكّر ذاب في الماء. تحلم جيهان كثيراً إن تخيّلت أنني سأتخلى عن حقي وحق ابنتي. أزيح الستارة ثم أسحبها بسرعة

ملاحقة بعيني خيال رجل يبدو مألوفاً من بعيد. أدقق النظر دون فائدة. ربما يجب أن أزور حيّي القديم وأبحث عن "حمّا دولار" للاستعانة بخدماته. يجب أن أوقظ جيهان من أوهامها، وحمّا دولار هو الرجل المناسب لمثل هذه المهمة. لن يكون صعباً إيجاده، سأعرفه حتى بعد مرور كل هذه السنوات. تُعلمُ خدّه الأيسر ندبة طويلة يتفاخر بها ويضع رقعة سوداء من الجلد على إحدى عينيه رغم أنها سليمة. وقيل لي إنه يفعل هذا لاضفاء المزيد من الهيبة على شخصيته. قيل لي أيضاً إنه المسؤول الأول في المنطقة عن عمليات تهريب الفياغرا المغشوشة والسجائر المضروبة والسلاح من ليبيا، وقد قيل سابقاً في التسعينيات إنه المسؤول عن تهريب الزطلة من الجزائر. يقال الكثير عن حمّا دولار لكن أهم ما قيل لي أنه الرجل المناسب للمهمّات الصعبة وأن إلهه كان ولا يزال الدولار. إن حدث وخسرتُ القضيّة وحصلت جيهان على هذا البيت فسأستعين بخدمات حمّا دولار.

٢

لن أغادر هذا البيت مهما حصل.

حين كنت صبيّة وفقيرة، كانوا ينادونني صُوفيا "طاطا"[١]. أمّا الآن فينادونني باحترام مدام صوفيا. أطلقوا عليّ اسم طاطا صوفيا من دون أن يعرفوني، من دون أن يتأكدوا إن كان الاسم يُناسبني. تهامس الناس خلف ظهري ومنهم من تجرأ وناداني صراحة "صاحبة الرومي العجوز".

Yes، oui، نعم، أنا صاحبته، بكل اللغات. ما شأنهم؟ ما همّهم؟ هل اهتمّوا حين نمتُ تحت سقف مثقوب؟ هل اهتمّوا حين هدهدتني أنّات الألم من جسد أمّي المتيبّس؟ هل اهتمّوا حين كان إخوتي الصغار ينامون من دون طعام؟ هل اهتمّوا حين كان إخوتي الصبيان يرعون الغنم والمراعي كما تدرون لا تفور بالذئاب والخنازير البريّة فقط بل تفور أيضاً بلصوص البراءة، مغتصبي الصغار.

أجل، لقد غرستُ عينيّ في عينَي الرومي بفجور، بكل فجور الفقر، بفجور السقف المثقوب ينز مطراً، بفجور الألم على وجه

١ المقصود tata من كلمة tante الفرنسية.

أمّي تفرد أصابعها وأطرافها المتيبّسة فلا تقدر. أجل غرستُ عينيّ في عيني الرُومي العجوز. في الحقيقة "رُويْ" لم يكن عجوزاً، كان كهلاً في أواخر الأربعين لكني أنا من كنتُ صبيّة فتيّة. كنتُ حطبة جهنّم كما نادتني إحدى النساء في الحمّام. "يا حطبة جهنّم، صرخت عبر البخار المتموّج في قاعة الماء الساخن. في البداية لم أر وجهها جيّداً لكنني تبعتُ صوتها وهي تضيف: "يا عاهرة، تفتحين ساقيك لرومي غير مطهّر".

فار الدم في جسدي وسمعت دقات قلبي تُدوّي في أذنيّ، لكني تمالكت نفسي وضحكتُ بأعلى ضحكة لديّ. وقفتُ أمام جسد المرأة العاري ما عدا غلالة متهدلة من القطن البيج. كان العرق ينز دون توقف من مسامّ جسدها منهمراً مثل دموع. كان جسدها يبكي وكان جسدي المُتصلب أمامها يغلي. وقفت أمامها ولم أتكلم. رشقتُ عيني في عينيها فقط. بينما تدافعت الشتائم في فمي دون أن ألفظها، حبستها داخل حلقي ثمّ أدرتُها داخل فمي مثل علكة وردية فرقعتها عندما رأيت الذعر أخيراً يتلألأ في عينيها، فرقعت بالون شتائمي في وجهها بجملة واحدة:

On répond aux imbéciles par le silence.[1]

رُويْ لم يكن عجوزاً وأنا لم أكن طفلة. لم أكن حطبة بل جمرة ملتهبة، كنت عصا مكنسة كما اعتاد إخوتي مناداتي. كنتُ جلداً أسمر ملتصقاً على هيكل عظمي، كنتُ بطناً مسطحاً ومؤخّرة مسطحة ونهدين مكوّرين بحجم كرتيْ تنس ويعلو فوق كل هذا

١ نجيب الحمقى بالصمت.

رأس مدوّر صغير يغطيه شعر أسود قصير... لا أدري ما الذي أعجبه فيّ حقاً؟ ربما كانت نظرتي؟ بكل تأكيد نظرتي.

أذكر يومها كيف قلبتُ "البالة" بصبر. كنت أبحث عن فستان جميل ولافت للانتباه. سألت صديقتي بثينة ترى أيّ الألوان أختار؟ يومها نظرت إليّ بثينة باستهجان وسألتني: هل وجدت طعاماً تأكلينه كي تقلّبي في أكداس "الفريب"؟

أجبتها وعيناي منغرستان في كومة الثياب بتركيز: يجب أن أجد هذا الفستان، هذا الفستان هو المفتاح، هو الفأس التي ستجتثّ الفقر من جذوره.

ليلتها غرستُ عيني في عيني رُويْ من دون أن يرفّ لي جفن ومن دون أن ترتعش ركبتاي. فقط في الحبّ نخاف وتتهاوى الأرض من تحتنا وتقترب السماء من فوقنا حتى تصبح سقفاً أزرق يكاد يقع على رؤوسنا. مع رُويْ كنت أنا الصيّاد وكان هو الفريسة، يده كانت العصفور ويدي كانت القنّاص. إذاً ما فائدة الحب؟ عذاب لا فائدة تُرجى منه. أجل الحب رائع لكنه لم يزدني سوى فقراً وضياعاً. كنت ساذجة حين أحببت وصدقتُ أنني حقاً دعسوقة تحط في باطن كفّ حبيبي فيفرح. كان حبيب يناديني يا نحلتي بينما يلهو خلف ظهري مع أيّ بنت تضحك له .نظرة واحدة من عينيه كانت كافية لأشعر بمذاق العسل على شفتيّ وبحلاوة في روحي، فأصدّق كل أكاذيبه.

حين رفعت شفتيّ أول مرّة ليقبّلني، ارتجفت ركبتاي ودوّت دقات قلبي حتى خشيت أن يسمعها. وعندما قبّلني أخيراً شعرت بأن الأرض مادت تحتي. دار رأسي وبدا سقف السماء قريباً حتى

خلت أنها سوف تهوي فوقي. الأمور مع رُويْ كانت مختلفة. عندما رأيت رُويْ أول مرّة غرست عيني في عينيه وشعرتُ بالقوة، شعرت بأنني نسر صغير يتجهّز لينقض على أول فريسة له. نظرة رُويْ يومها كانت نظرة عابثة، تحط على الوجوه بكسل ولامبالاة. في البداية لم يهتم بي لكنه عندما التقط نظرتي المُتوثبة تغيّرت نظرته الكسولة. لم أرَ أعذب من تلك النظرة ولا أقسى منها. تجمّدت العينان الزرقاوان على وجهي وانتبهتُ لحركة ساقيه المتوترة من تحت الطاولة. في تلك الليلة التي أقام فيها حبيب حفلة على نخب صديقه الأمريكيّ رُويْ ودعا أصحابه من الشباب والفتيات المتحرّرات، دعاني أنا أيضاً. كنّا أربع فتيات نحضر لأول مرة سهرة مختلطة ونرقص مع الشبّان ونشرب لأول مرّة البيرة التي سبق أن سُكبت في قوارير عصير كي لا ينتبه والد حبيب. ليلتها رأيت نظرة رُويْ تتسلق جسدي وتحط على صدري مثل حمامة تبحث عن حافة نافذة ترتاح عندها. رأيت نظرته تتموّج عندما تعبر جسدي فتتحوّل إلى نظرة رجل يريد أن يضمّني حتى يكسر ضلوعي ورأيت نظرته حين تستقرّ على وجهي تتحوّل إلى نظرة أم تريد أن تحتوي صغيرها.

ومع ذلك لم تكن ليلتي الأولى مع الرومي عاصفة استوائية. الفستان الملوّن بلون الفوشيا الذي اشتريته بنصف دينار من "البالة" كان مفتاح ليلتنا الأولى. بفرنسيته المتكسّرة وإنكليزيتي الميتة تركنا اللغة وراء الباب. فقط لغة اليدين تكلمت ليلتها. لم يعاملني كعاهرة كما خشيت أن يفعل. عاملني كملكة. أنا الفحمة المحترقة بنت "حُومة" ليس فيها أعمدة إنارة، أجلسني الأمريكي الأشقر على

الأريكة وجثا هو أمامي على الأرض. لثم قدميّ إصبعاً إصبعاً ومضت شفتاه صعوداً على امتداد ساقيّ الرفيعتين، صعوداً حتى توقف الوقت وتلألأت نجوم صغيرة داخل رأسي، فضحكتُ.

نادوني صُوفيا "طاطا"، نادوني عاهرة الرومي الرخيصة، لكنني لم ألتفت لهم. لقد أردت أن أبصق على الفقر بكل اللغات، أردت أن أسحق الفقر بكل الإشارات، بلغة الأصابع وبلغة اليدين. نعتوني بالفاجرة الانتهازية عندما عرفوا أنني أستعير منازل صديقاتي الثريّات. كنت أستعير بيتاً كل مرّة لألتقط لنفسي صوراً جميلة. أجلس على الأرائك الفاخرة متأنقة بفساتين ملوّنة وقصيرة. أشابك ساقيّ وأرفع سمّاعة هاتف البيت المُستعار، أثبت سيجارة في يدي اليمنى بينما تقبض يدي اليسرى على السماعة بقوّة أتشبّث بها كآخر طوق نجاة. ثمّ أرسم ابتسامة للكاميرا. وقتها لم أكن أعرف أن البيوت المُستعارة وصور ثرائي المزيّف كانت من دون معنى. لم أعرف أن رُويْ سبق أن تذوّق ملح الفقر على جلدي منذ ليلتنا الأولى كما سيخبرني بعد ذلك بسنوات. وقتها كنت أعمل بجدّ على جعل علاقتي به تستمرّ برغم المسافات وفارق العمر وحاجز اللغة وكل ما يفصلنا. كان ورقة اليانصيب التي كشفتُ أرقامها السرّية وفزتُ. أرسلت له رسائل شوق سرقت كلماتها من الأغاني وألصقت شفتيّ المصبوغتين باللون الفوشيا كتوقيع ذيّلت به رسائلي. فعلت كل شيء في سبيل الحصول عليه، استعرت لأجله بيوت صديقاتي الثريّات اللاتي كثيراً ما طلبن منّي خدمات صغيرة مقابل تلك الصور (إزالة الشعر من أجسامهن بحلاوة السكر بيديّ الخبيرتين، تسليم الرسائل إلى عشّاقهن، ترتيب

مواعيد وأماكن للقاءاتهن المختلسة)، غذيت الأمل بعودة رُويْ طيلة أشهر ستة، بالمكالمات الهاتفية المتباعدة والمتقطعة التي كنت أتلقاها منه على هاتف الجيران مرّة كل أسبوعين. كل اتصال كان أملاً يتجدّد. كان رقماً ينكشف من ورقة اليانصيب الرابحة. لكن رُويْ كان ينساني ولا يتّصل. ومع ذلك لم أسمح لليأس بأن يهزمني. واصلت استعارة البيوت والتقاط الصور إلى أن عاد رُويْ. عاد رجلي الأمريكي وأخذني معه وراء البحار، وراء الفقر والرطوبة المُعرّشة على الحيطان وقطرات المطر التي تنهمر على جسدي وصِباي مثل دموع كبيرة، عاد ليأخذني وراء جوع الليالي الطويلة ووراء خوفي على إخوتي من لصوص البراءة ومن الخنازير البرّية.

٣

لم أكن في المنزل عندما حصل الأمر. حدث هذا منذ أسبوعين. كنتُ في المطعم أجهّز طلبية طعام لعائلة من خمسة أشخاص. حين هاتفتني دلال واصلتُ تقليب قطع الدجاج وبحثتُ بعينيّ عن البنت التي تعمل عندي. وصلني صوت دلال تُقطعه بشهقات البكاء فلم أستوعب كلامها أول الأمر: "أبي... أبي... أظن أنه أصيب بأزمة... اتّصلت بالإسعاف... لم يصلوا... هل أطرق باب الجيران؟ أمي... رغوة بيضاء تنساب من فمه!"

"بأيّ مستشفى اتصلتِ؟" صرختُ فتوقفت حركة الشوك والسكاكين في المطعم والتفتت صوبي الوجوه بفضول. لا أعرف كيف وضعت قطع دجاج وصلصة الفاصولياء السوداء في الأطباق وألقيتُ بها على طاولة العائلة المتكوّنة من أم ضخمة وأب منكمش على نفسه وثلاثة قردة صغار، ولا كيف التقطتُ مفاتيح سيّارة التوصيل من الدرج واتجهت ركضاً نحو الباب. وصلني صوت المرأة المتذمّرة فلم ألتفت. فلتذهب للجحيم! يحب الناس تناول الطعام خارج البيت كي يمارسوا تسلطهم على الآخرين.

استقبلني هواء ديسمبر الصقيعي فانتبهتُ إلأى أنني لم أرتدِ معطفي لكنني واصلت رغم ذلك ركضي نحو سيّارة التوصيل المركونة في الباحة الخلفية وهناك وجدتُ الشابة الأوكرانية التي تعمل لديّ تتبادل قبلاً محمومة مع سائق التوصيل الباكستاني. ومن دون أن أنتظر ردّاً أعلنتُ لهما: "يجب أن أذهب... لديّ حالة طارئة".

لسوء الحظ علقت في الزحام. كانت لا تزال أمامي خمس إشارات أو أكثر، ولو قضيت ربع ساعة كل مرة قبل أن تفتح الإشارة فسأصل للمستشفى بعد أكثر من ساعة. انعطفت في شارع جانبي وركنت السيارة وانطلقت جرياً. فاحت في الهواء البارد رائحة الهوت دوغ من العربات المنصوبة في الشوارع فأشعرتني بالغثيان. قاومت رغبتي في التقيّؤ وركضتُ طويلاً وحين تعبتُ مشيت بخطوات سريعة وأنا أكرّرُ سور القرآن القليلة التي أذكرها، ابتهلتُ إلى الله ابتهالات ساذجة حين أتذكّرها أضحك من نفسي: "إذا نجا حبيب هذه المرة فسأطعم عشرين مسكيناً. سأتوقف عن الكذب... سأتوقف عن الشراب... سأفعل أيّ شيء يا الله". شعرتُ بأن الطريق لن ينتهي. وحين وصلت أخيراً أمام المستشفى تنهّدتُ وبآخر ما بقي لي من طاقة ركضتُ نحو قسم الطوارئ. كان حبيب قد مات قبل ربع ساعة وأغمي على دلال فأدخلتها الممرّضات إلى إحدى الغرف. ماد بي الممرّ الأبيض وهوت لمبات النيون الكئيبة فوقي بينما تراقصت حولي وجوه الممرّضات المبتسمات بتعاطف وأسندنني كي أقف قبل أن ينصرفن إلى مشاغلهن ويحملن معهن وجوههن. وحين وقفتُ مجدّداً في ممرّ المستشفى رفعت يديّ ولطمت وجهي فارتطمت يدي بطرف

القبّعة التي نسيتها على رأسي. كانت قبّعة على شكل رأس دجاجة، ألقيت بها ودهستها بقدميّ حتى تسطحت.

اهتم أصدقاء حبيب بكل شؤون الجنازة فغسّلوه وكفنوه في بيت صديقنا إياد حيث أقمنا المأتم. لا أعرف من أين برز فجأة شريط قرآن بقراءة عبد الباسط عبد الصمد، فعندما كنّا نسهر معاً في بيت إياد كان يُضَيّفنا عرقاً قُطّر يدوياً. خيّم الوجوم علينا جميعاً وما عدا الحديث عن الوثائق المطلوب تقديمها لإدارة المطار كي نتمكن من شحن جسد حبيب، لم يكن هناك الكثير ليُقال. نصحتني باسمة التي سبق أن شحنت جسد ابنها، بالتوجّه إلى القنصلية لاستخراج شهادة وفاة رسمية وحسبت معي التكلفة التقريبية للشحن. شعرت بألم في صدري وأنا أناقش تلك التفاصيل. بين صبيحة وضحاها، تحوّل حبيب إلى جسد يُشحن، مثل بضاعة انتهت صلاحيتها ووجبت إعادتها إلى نقطة تكوّنها الأولى. بين صبيحة وضحاها، تحوّل زوجي وحبيبي إلى ضمير غائب نتحدّث عنه بصيغة الماضي وكأنه لم يكن جالساً معي بالأمس نتحدّث، كأنه لم يمازحني أو يبتسم لي، كأنه لم يعانقني أو يرقص معي.

يوم الاثنين تمكنتُ من إنهاء المعاملات اللازمة في المستشفى والقنصلية وجهّزتُ حقائبنا للسفر في وقت متأخر من نفس تلك الليلة. لم أسمح لنفسي بالبكاء أو التفكير إلى أن جلسنا على مقعدينا وربطنا أحزمة مقاعدنا. استرخت دلال على مقعدها بجانبي بعد أن تناولت حبوباً منوّمة جعلتها تنام معظم ساعات رحلتنا الطويلة. انسابت الدموع التي كبحتها طيلة النهار وتدفقت معها نُتف من

ذكرياتي مع حبيب. تذكرتُ كيف رغب في العودة النهائية إلى تونس وكيف كرّر في كل مرّة محاولاً إقناعي نفس الكلام: "حان الوقت لنرتاح يا صوفيا. عشنا هنا ما يكفي ومثلما رأينا كل مستحيل يصبح ممكناً على أرض هذه الأم الكبيرة التي رضعنا من ثدييها، رأينا أيضاً انقلاب الأوضاع وثروات تتبدّد بين ليلة وضحاها. لقد عشتُ هنا ما يكفي لأعرف أن الوقت حان للعودة."

استعدت كلماته فلعنتُ نفسي. ربّما أرسل جسد حبيب رسائل خفيّة أعلمته باقتراب الموت فرغب في العودة النهائية إلى تونس وأنا بكل أنانية لم أهتم بتحقيق رغبته. حاول حبيب إقناعي دون جدوى: "رأيتُ رجالاً كانوا يلعبون بالنقود لعباً ومرتادي البورصة ببدلاتهم الثمينة ينهارون ورأيتِهم أنتِ أيضاً. شاهدنا كيف خسروا كل شيء وتحوّلوا إلى مشردين ينامون في الشوارع ويفترشون كراتين ويتغطَّوْن ببطانيات مهترئة. رأيناهم يقلبون حاويات القمامة بحثاً عن بقايا الطعام ويشعلون نيراناً تدفئهم في الزوايا."

عشنا معاً عمراً من السنوات لم يعد من المهم أن أحصيها الآن فقد مرّت مثل دقائق. تذكرتُ ليالي الحب ودفء جسده والتماع عينيه حين تكبرُ الرغبة بيننا. تذكرت كيف كان يقتلني بصمته في خصاماتنا. كأن الموت لم يكن نهاية بل بداية أخرى نستعمل فيها نحن الأحياء، مادّة الذكريات لإعادة تشكيل الحياة التي عشناها مع موتانا وقد فعلتُ هذا طيلة ساعات سفرنا وأظن أني سأفعل هذا ما حييتُ. تذكّرت صفقتنا الأولى الرابحة ورقصنا في الشارع "نحن في الشارع" قلتُ. "نحن في أمريكا، لا تهتمي بأحد لأن لا أحد يهتم"

أجابني حبيب ورفعني، دار بي فدارت من حولي الأشياء ضاحكة.

تحدّثنا كثيراً عن المشاريع وعن أحلامنا بالثراء، درسنا السوق وقرّرنا الاستثمار في العقارات. كان حبيب يمتلك العقل وكنت أمتلك المال وكنا في منتصف التسعينيات حيث انتشرت البنوك الصغيرة وسهل الحصول على القروض المالية بسهولة. نقترض مبلغاً من بنك ألف نستثمره في شراء العقارات ونقترض من بنك باء كي ندفع أقساط بنك ألف وبنك جيم وهكذا. "طربوش هذا على رأس ذاك" كما كان حبيب يردّد منتشياً بالأرقام وبالنجاح الذي حققناه وبارتفاع رصيد حسابنا البنكي المشترك. كان من السهل الحصول على السيولة المالية سواء بالقروض أو اللجوء للدفع ببطاقات الائتمان... أودعنا المليون الأول في حسابنا بنهاية السنة الخامسة لانطلاقتنا في مجال العقارات. تذكّرت كيف فاجأني بعدها حبيب ببطاقات سفر. "أخيراً سنحصل على شهر عسل... سيكون شهراً لا يُنسى" أعلن بحماسة وهو يقرصني من خدي بلطف. سافرنا إلى لندن ونزلنا في جناح فخم بفندق "بارك حياة". كان أفخم مكان دخلته في حياتي، وعوملت فيه كأميرة حقيقية. تهافت خدم الفندق على إرضائنا وتلبية أدق حاجياتنا. افتتنت بمظاهر الرفاهية ووسائل الرخاء بينما افتتن حبيب بالملكة. "تكاد تكون غير حقيقية" كان يقول كل يوم ونحن ننتظر بصبر أمام القصر الملكي مترصّدين خروجها إلى الحديقة. لاحقنا السناجب في "الهايد بارك" وأطعمنا بط البحيرة وركضنا مثل الصغار على المرج الأخضر. أتذكّر كيف أسندني حبيب هناك على جذع شجرة ضخمة وقبّلني ثمّ نظر في عينيّ طويلاً قبل أن

يقول لي أحبّكِ صوفيا. أتذكر تماثيل القديسين في الساحات حيث تبادلنا القبل مثل كل العشاق المجهولين في الشوارع. استمتعت بسفرتنا تلك وأحببت لندن لأنها كانت مثل حبيب، غامضة ومُعقّدة.

تذكرتُ وجه حبيب عندما أعلمته بحملي. لم تبدُ عليه الحماسة أو الفرح وتلقى خبر حملي مثلما يتلقّى أيّ خبر آخر وقد جرحتني لامبالاته تلك. عرفنا بحملي في إحدى إجازاتنا بتونس فاضطررنا للبقاء مدة أطول حتى يثبت الجنين في رحمي. تذكرت الصدمة على وجه حبيب عندما رأى السرير الملطخ بالدم وكيف واساني لاحقاً عندما أخبرنا الطبيب بإمكانية فقدان الجنين: "المهم أن تكوني أنتِ بخير، ما زال لدينا الوقت." كان حملاً ضعيفاً مُهدّداً بالسقوط وقد نصحني الطبيب بالراحة المُطلقة والاستلقاء على ظهري طيلة الوقت ووصف لي حبوب "الفوليك أسيد" لتثبيت الجنين. أذكر كيف دللني حبيب حين توقف النزف وتجاوز الجنين مرحلة الخطر. أخذني إلى أفخم المحالّ وابتاع لي فساتين حمل رائعة كانت معظمها فساتين قصيرة وبقصّات مفتوحة الصدر. ربّما لأنه كان يدللني كثيراً كرهتني أخواته ما عدا مريم التي كانت بعيدة عن مشاحناتنا، حاربتني أخواته واستثرن حَمِيّته دون جدوى "كيف تسمح لها بارتداء هذه الملابس الفاضحة".

تذكرتُ الكآبة التي أصابت حبيب بعد تعرّضه للأزمة القلبية الأولى، كان يردّد بغضب ويأس "سأموت يا صوفيا ولم أخلف ورائي شيئاً. سيتلاشى اسمي وكأنني لم أوجد قط. سأخلف حصان بحر مُحنّطاً كنت أعلقه في المرآة الداخلية لسيّارتي ليحميني من العين

وثلاث بنات لم أعرف اثنتين منهنّ ومن المؤكد أن كل واحدة تمقتني أكثر من الأخرى. حتى الشركة التي أسّسناها تلاشت من الوجود، كأننا لم نؤجّر مكتباً في أعلى ناطحة سحاب بشيكاغو ولا وظفنا خبراء ولا عقدنا صفقات مهمّة ولا حققنا أرباحاً خيالية. ها نحن نعودُ إلى نقطة الصفر بل نحن تحت الصفر. بعد إشهارنا لإفلاسنا البنكي، ستُغلق في وجهنا أبواب القروض."

تذكرتُ كيف تعافى من الكآبة بفضل دفتر الوصفات القديم الذي أخرجته من أحد الأدراج وتفننت في إعداد وجبات منه. كانت وصفات طعام شهيّة و"إيكزوتيك" وكان حبيب بطبعه يحب الطعام ويحب الاستمتاع به، يجلس إلى الطاولة بأناقة ويأكل بأناقة. كان يعتبر المطاعم من أنجح المشاريع إذا ما أديرت جيداً. أقنعني بأن نغامر بما بقي لدينا من نقود ونفتتح مطعماً صغيراً نعمل فيه معاً: "لا يأكل الناس فقط لشعورهم بالجوع فهم يشعرون باللذة أيضاً عندما يتناولون طعاماً شهيّاً. انظري إليهم عندما يأكلون وسترين هذا على وجوهم."

وتذكرت كيف كان حبيب يقول لي "تبدين أطول في الفراش" مقترباً مني. يسكت قليلا وكأنه يفكر ثم يضيف: "رؤيتك عارية تذكّرني بالأرض". فتسعدني كلماته أسأله مُخللة أصابعي في شعره "كيف خطر لك قول هذه الكلمات؟" فيقرّب وجهه من وجهي مُحدّقاً في عينيّ: "فكرتُ في كتابة قصيدة لطيفة لكنني لم أنجح سوى في تركيب جملة من أربع كلمات". متأثرة أقبّله قبلات صغيرة وسريعة على كامل وجهه فيضحك معترفاً: "تريدين الصدق، قرأت الجملة الثانية في مجلة بينما كنت أنتظر عودتك."

٤

وصلنا إلى تونس صبيحة الثلاثاء. كانت الأجواء في المطار غريبة. ابتسم أعوان الجمارك في وجوه المسافرين توانسة وأجانب على غير العادة وختموا جوازات الجميع في وقت قياسي. لم أعرف إلا لاحقاً بالأحداث التي كانت تعصف بالبلاد. بعد أن تسلّمنا حقائبنا وخرجنا وجدنا أخي شكري بانتظارنا ليصطحبنا. كرّر أخي طيلة الطريق نفس كلمات العزاء والمواساة وحدثنا عن إعلان حالة الطوارئ في البلاد والتظاهرات اليومية في شارع الحبيب بورقيبة والمواجهات بين الشباب والأمن ورفض الجيش رفع السلاح في وجه المتظاهرين. استمعت إليه من دون تركيز وحين وصلنا أخيراً إلى المدينة أنزلتُ شبّاك نافذتي متأمّلة الناس والشوارع. توجهنا نحو المنطقة التي ترعرعنا فيها حيث اختارت أمّي أن أبني لها بيتاً هناك. كانت الأزقة في ذلك الجزء من المدينة تلتفّ مثل أفعى تريد أكل ذيلها. لا شيء تغيّر، ظلّت البيوت التي بُنيت على عجل في التسعينيات مكانها وقد تآكل الآن خشب مصاريعها وتقشّر دهانها وعرّشت الرطوبة على حيطانها بينما غُطّيت التشققات بلطخات إسمنتية غير متناسقة.

تناثرت بعض المحالّ الجديدة بين المنازل مثل فواصل تضجّ بالحياة، بقالات ومحلّ نجارة ومحلّ لبيع الملابس المستعملة ومقاهٍ شعبية تعجّ بالعاطلين من العمل وبالمُتبطّلين الذين يتابعون حركة الشارع باستمتاع. حين انتبهت إلى نظراتهم تلاحق السيارة أغلقت النافذة.

نظرتُ إلى الإسفلت المُرقّط بحفر تعد البلدية كل سنة بإصلاحها ولا تفعل. ونظرتُ إلى أعمدة الكهرباء التي كانت مصابيحها لا تزال مُنارة وقد تجاوزت الساعة التاسعة. ستظل مضاءة إلى أن ينتبه أحد الموظفين في شركة الكهرباء فيطفئها. ونظرتُ إلى الأطفال في الشارع يلعبون برغم رذاذ المطر، فتذكّرتُ نفسي طفلة تقفز فوق برك الماء وأفواه الحفر التي تبتلع أحذيتنا. تذكرت كيف كنّا نحن الأطفال نتقافز مثل ضفادع سعيدة بقدوم المطر فشعرتُ بالحنين. كان فصل الشتاء فرصة نتفاخر فيها بأحذيتنا المطاطية المُلوّنة ونكتسب مهارة القفز فوق برك الماء دون أن ننزلق. ونتفاخر في الفسحة على أصحاب الأحذية الجلدية الذين لا يلعبون محاذرين تلطيخ أحذيتهم. ربّما كان هذا أول درس حقيقي تعلمته في طفولتي. لا يهم ما الذي أفعله، كل ما يهمّ أن أستمتع بفعله.

كل شارع مررنا به ذكّرني بحكاية خروجي التي لم تبدأ حين تعرّفتُ إلى رُويْ بل بعدما عاد حبيب من فرنسا مُثقلاً بالهدايا والأحلام الغريبة. عند عودته من أول سفرة له، غمرني حبيب بالهدايا. أهدى إليّ عطراً قطرة منه تظل عالقة بأنفي لساعات، وعقداً فضّياً تتدلى منه سمكتان متعانقتان تلتمعان في ضوء الشمس بفضل حبيبات الزيركون التي تزيّنهما. بعد ثلاثة أشهر، عاد حبيب وكأن مختلفاً.

تغيّرت طريقة كلامه وتغيّرت معها أحلامه. حتى نظراته تغيّرت. لم يعد ينظر إليّ حين يتحدّث بل أصبح ينظر أمامه ويتحدث بكلمات جديدة وكبيرة تصفُ المستقبل الموجود وراء البلاد والذي يمكن الوصل إليه عبر طرقات السماء. حدّثني حبيب عن رُويْ ولقائهما في أحد مستشفيات باريس وعن مراسلاتهما التي بدأت بعد عودته ووعد رُويْ بمساعدته. وبقدر ما كنتُ مفتونة بالسفن أصبح حبيب مفتوناً بالطائرات. شعرتُ بالغيرة لأنني لم أكن ضمن أحلامه. وبدأت أحلمُ بدوري ويوماً بعد يوم أخرجتُ حبيب من أحلامي.

بعد مرور سنة على زواجي برُويْ وسفري إلى شيكاغو، وعند أول زيارة عدت فيها إلى البلاد، فهمتُ الغرابة التي تصرّف بها حبيب عندما عاد بعد أول سفرة له. فهمتُها لأنني أنا أيضاً تصرّفتُ بغرابة. كنتُ مشوّشة فقد بدا كل شيء حولي مختلفاً لكنه كان في نفس الوقت مثلما تركتُه. كان الناس هم الناس، بوجوههم القمحية التي لوّحتها الشمس يواصلون عيش أيّامهم بنفس الإيقاع محافظين على نفس الأحلام، أحلام الخبز والإسمنت. ووجدتُ مقهى نيس ومقهى دالاس ومقهى بلال، تواصل ممارسة مهنتها الأبدية كفضاءات ترفيه. واستمرّت العربات التي تجرّها الخيول في مجاورة السيّارات القليلة على الطرقات وواصل قطار البضائع مروره في نفس الأوقات مُحمّلاً بالحديد الصلب. وكعادتها اقتاتت المدينة على أحداث عابرة وقد قيل في زيارتي تلك إن سفير النرويج أو سفير روسيا سيزور المدينة ويدشن قسماً جديداً من المحطة، ومثّل ذلك الخبرُ وقتها حدثاً كسر رتابة الأيام. لكنه كان مثل حصاة ألقيت في بحيرة فأحدثت

تموّجات على سطحها سرعان ما تلاشت. ظلت البيوت ذات الأسقف القرميدية الحمراء كما تركتها وكما تركها قبلي "المُعمّرون" لكنّ قاطنيها تغيّروا. في الأشهر الأولى لم يتناول التوانسة الطعام على الطاولات الخشبية الطويلة وجلسوا إلى موائدهم المستديرة التي جلبوها معهم، يتحلقون حولها ليتناولوا الطعام معاً من نفس الإناء. لم يناموا على الأسرّة الفاخرة إلّا بعد أشهر من التردّد وحافظوا على نفس ترتيب الأثاث في البيوت كأنّ سكانها سيعودون في أيّ لحظة. لم يشعلوا في فصل الشتاء حطباً في المدافئ وتركوا الغبار يتراكم ويمتزج مع الرماد القديم. لطالما مررتُ من أمام بيت "باربرا" البيت الذي حلمت بامتلاكه. و"باربارا" كانت أشهر مُعمرة إيطالية عاشت في مدينتنا. لم تغادر البلاد إلّا بعد مضيّ سنوات من الاستقلال وبعدما غادر جميع معارفها. كانت أجمل امرأة عرفتها في طفولتي، طويلة القامة وممتلئة، حليبية البشرة وتشبه عيناها العسليتان عينيْ قطتها. كنت أحبّها لأنها امرأة فرحة وتبتسم طيلة الوقت. كانت تمتلك مكواة واستثمرت هذه الملكية جيداً فقد كانت تكوي ثياب الناس مقابل بيض "عربي" أو قنينة زيت زيتون بكر أو مكيال من القمح. رحلت باربارا ذات يوم ربيعي حاملة معها قطتها الفرنسية فقط وخلفت وراءها أثاثها الخشبي المصنوع وفق تصاميم إيطالية وخزانة فاخرة بأواني الكريستال والتحف.

حين عدت في أول زيارة لي، نظرتُ إلى مدينتي بنظرة جديدة وأدركتُ أنني تغيّرتُ وتغيّرت معي أحلامي، أصبحت أكبر من المدينة. لم أعد كثيراً بعد تلك السنة وحين فعلتُ كنت بالكاد أقضي

أسبوعين فيها ثم توقفت عن العودة بعد وفاة أمي. لكنني لم أنسَ يوماً زيارتي الأولى تلك. فقد عدتُ فيها بثلاث حقائب كبيرة الحجم مثقلة بملابس وعطور وأحذية ومعاطف. كنتُ متحمّسة عند شرائي للهدايا ومتحمّسة أكثر عند ترتيبها في الحقائب. تمنّيتُ وقتها لو أنني تمكنتُ من حشر أمريكا في حقائبي كي أقدّمها لأمي وإخوتي.

٥

يوم الأربعاء عدتُ برفقة مريم وزوجها إلى المطار لتسلّم التابوت ولم أصطحب دلال معنا. أجرنا سيارة إسعاف مع سائقها من أحد المستشفيات الخاصّة وانتظرنا طويلاً إلى أن تسلّمنا التابوت. تحسّست مريم المخمل الأسود الذي غُلّف به وبكت وهي تفتحه كاشفة عن وجه حبيب. قبّلته وكررت وسط دموعها "سيأكلك التراب يا خُويا الغالي". اقتربت من جسد حبيب قبّلته ثم مسحَت دموعي التي تساقطت على وجهه. دُهشنا لرائحته العطرة رغم مرر أربعة أيّام على وفاته. "كأنه رُشّ بعطر للتوّ"، قالت مريم باستغراب. متشكّكة تشمّمت جسده الذي انبعثت منه نفس الرائحة الطيبة. بحثت في عقلي عن تفسير لتلك الرائحة ثم تذكرت. كانت رائحة المرهم الطبّي الذي أخبرني إياد أنهم سيدهنون به جسد حبيب مفسّراً لي الفائدة منه "يستعمل المهاجرون هذا المرهم لدهن أجساد موتاهم. ليتحمّل جسد الميّت ساعات السفر الطويلة."

جلستُ مع مريم في القسم الخلفي من سيّارة الإسعاف وبيننا التابوت المفتوح، بينما جلس زوجها بجانب السائق. لم أرفع

عينيّ عن وجه حبيب طيلة الطريق حتى حين سألتُ مريم أين سيُدفن جسده، ولا رفعته حين أجابتني "سيُدفن حبيب بالقرب من قبريْ أمي وأبي أو في أيّ مكان شاغر بالقرب منهما."

سكتت مريمْ قليلاً ثم أضافت: "على الأقل هذا الأخ سنعرف له قبراً نزوره أمّا الثاني فالله أعلم إن كان فوق التراب أم تحته". لم أعلق على جملتها التي بدت فاتحة لحديث لم يكن لديّ أدنى رغبة في خوض غماره. تعلمتُ طيلة السنوات الماضية تجنب مثل تلك الجمل الشبيهة بفخاخ تُنصب وسط الحديث. كانت مريم تتململ عادة في جلستها وتقول: "أخبرني حبيب أنه ما زال يبحث عن نور الدين، هل عرف عنوانه؟". أو تقول نعمة بمكر "هل أخبركم نور الدين عندما زاركما أنه حصل على وظيفة جديدة براتب جيد؟" وفي مناسبات أخرى تصبح أخوات حبيب شرسات فيسألنني: "هل اكتشف حبيب أن نور الدين مات ولا يريد إخبارنا؟ هل له علاقة بالأمر؟ ألم يحصل هذا بسبب كارول تلك العاهرة الرومية؟ هيا تكلمي، لن نخبره أنك فعلت... نعرف أنه لا يخفي عنك شيئاً."

درّبتُ نفسي على تجنب الأسئلة المزروعة وسط الحديث مثل ألغام وكلما اتخذ الحديث هذا المنحى، اتخذتُ منعطفاً آخر وغيّرتُ وجهة الحديث بلباقة. وها هي ذي مريم تعيد فتح الموضوع معي عنوة مستغلة موت حبيب. لم تصدّق أنني لم أكن أعرف شيئاً عن الموضوع رغم أنني خلال سنوات زواجنا كثيراً ما سألتُ حبيب عن نور الدين لكنني كنت أصطدمُ كل مرّة بجدار صلب من الصمت.

طيلة السنوات التي قضيناها معاً، لم يذكر حبيب أخاه سوى مرة واحدة في إحدى السهرات. ليلتها شرب حبيب كثيراً وبالكاد تكلم مع الآخرين. كنت أتحدث مع مضيفتنا وأراقبه بقلق حين لاحظتُ أنه لم يفارق بعينيه أحد الأشخاص متابعاً كل حركاته، ثم قطع صمته فجأة وناداه: "نور الدين".

لم يلتفت الرجل فاتجه نحوه جبيب مترنحاً. لحقت بحبيب فاكتشفتُ عن قرب شبه الرجل بنور الدين. بنفس العينين البنيتين يعلوهما حاجبان كثان، وبأنف مُدبّب وشفتين مُمتلئتين، بنفس استدارة الوجه يؤطّره سالفان ممتدّان على الوجنتين ونفس الشعر الناعم المُسرّح للوراء، كان الرجل نسخة أكثر شباباً من نور الدين لو كُنا التقيناه. لاح التوتر وعدم الفهم على وجه الرجل الغريب حين شتمه حبيب باللهجة التونسية، نعته بالنذل والأناني وسحبه من ذراعه بعنف صارخاً "أين كنت؟". نبرة حبيب العدائية ولغته المجهولة جعلتا الشاب يتراجع للوراء. انتبهت ليلتها أننا حين نغضب لا نستعمل اللغة الثانية التي اكتسبناها في الغربة بل نلجأ تلقائياً إلى لغتنا الأم. توقف ضجيج المتحدثين حولنا وخيّم الصمت على الحاضرين عندما نفض الشاب ذراعه من قبضة حبيب في حركة رعناء تسبّبت بانقلاب الطبق الذي يحمله الساقي الذي مرّ في تلك اللحظة بجانبهما. انقلب الطبق وتساقطت كؤوسه متشظية على الأرض وانسكب محتواها. شعرت بالإحراج فاعتذرت لمضيفينا عن الفوضى التي تسبّبنا بها وقدت حبيب نحو الباب كي نغادر. لم يكن المنزل يبعد عن منزلنا سوى شارعين، فعدنا سيراً على الأقدام. كانت تلك الليلة فرصتي للحصول

على إجابات، لم أضغط على حبيب كي يتكلم واستمعتُ إليه يُغنّي بصوت أجش مقطعاً من أغنية مجهولة "سئمت أن أكون نفسي... صديقي املأ كأسي... لنشرب في صحّة العاهرة التي قتلت قلبي."

توقف عن الغناء وغمغم بكلام غير مفهوم "كان يجب عليّ اللحاق به... البحث عنه... بسببها... الغضب طاحونة طحنتني من الداخل."

لم أتجرّأ على مقاطعته ومشينا بصمت في الشارع الخالي. تجاوزت الساعة الثانية وكان حبيب مثل قبطان مزاجي يوجّه دفة سفينته في بحر الحديث وفق مزاجه: "أشعر بالخجل من مريم... بطلة حقيقية... لا، أمّي البطلة، امرأة لا شبيه لها. لكنها ماتت غاضبة عليّ. لن أنسى ما حييتُ نظرة اللوم والشك في عينيها. ماتت وارتاحت وتركتني أتخبّط في عفن الندم."

حاولت دفعه للحديث بأكثر الكلمات حياداً "علامَ؟..."

– وما الذي لم أندم عليه. نادم لأنني ساعدت نور الدين على المجيء إلى هنا، ونادم لأنني طردته من بيتي، ونادم لأنني لم أبحث عنه كفاية...

– أتذكر نور الدين، كان شاباً لطيفاً...

– لطيف؟ لطالما كان نور الدين مُثيراً للمتاعب. صحيح حين كنا صغاراً تسليتُ بالمقالب التي دبّرها للآخرين لكن الأمور تغيرت حين كبرنا.

– أنا أيضاً أحب المقالب ولطالما دوّختُ أهلي بشقاوتي.

سكت حبيب طويلاً وكأنه كان يقلّب ذكرياته: "لم يكن نور الدين

ليُفوّت العرض الأول لأي فيلم جديد، فيتملق أخواتنا اللواتي كُنّ يعملن في تلك السنوات في مصانع للخياطة. يحوم حول الواحدة منهن ويلازمها مثل ظلها حتى يحصل على النقود. كنّا وقتها نسكن في بيت يطل على أرض مهجورة كانت ملكاً لأحد المعمّرين الفرنسيين واستعادتها الدولة كي تُقدّمها لأحد "الفلّاقة"[1] تشابكت فوق تلك الأرض نباتات وأعشاب طفيلية وأغصان أشجار شُذّبت وألقيت على الأرض بإهمال وعاشت فوقها مختلف أنواع القوارض والثعابين. كانت ليلة ساخنة ففرشنا حشايانا في الباحة ونمنا هناك بحثاً عن البرودة بينما هدهدت الصراصير أحلامنا. انتفضنا مذعورين عنما صرخ نور الدين فجأة "أفعى... هناك أفعى". مرتعبين قلبنا الحشايا ونفضناها لكننا لم نجد شيئاً لا فوقها ولا تحتها. مذعورة أدخلتنا أمي إلى البيت ولم تكتفِ بإغلاق النوافذ والأبواب بل سدّت بخرق قماشيّة كل فجوة وجدتها في البيت. يا لجحيم تلك الليلة، كأن الهواء تبخر من حولنا. لم يغمض لنا جفن حتى الصباح. لو حدث وتحرّك أحدنا، مال على جنبه أو غيّر وضعية نومه، لصرخ بقيّتنا خائفين. كان نور الدين الوحيد بيننا الذي تمكن من النوم. في الصباح، بعدما ابتعد مسافة كافية عن أمّي، اعترف بأنه لا وجود للأفعى إلا في الحُلم الذي رآه متأثراً بالفيلم الذي شاهده في اليوم السابق."

ضحكتُ وضحك حبيب الذي أنعشه الهواء فأسرع في خطواته. خلعت حذائي ذا الكعب العالي ومشيتُ حافية لأتمكن من مجاراته. تجاوزنا المنزل لكنني لم أبالِ فلم أكن لأفوّت فرصة إرضاء فضولي.

[1] الثوّار التوانسة الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي.

ظللنا مستيقظين حتى الصباح، مشينا طويلاً ثم دخلنا إلى مقهى يظل مفتوحاً أربعاً وعشرين ساعة، وطلبنا قهوة وفطائر التفاح والقرفة. بعد أن شرب حبيب قهوته استعاد دفة الكلام وأقفل موضوع نور الدين معي مرّة وللأبد: "نور الدين أناني لا يهتم بأحد سوى نفسه، يتصرّف وفق أهوائه حتى لو تسبّب هذا بخراب حياة الآخرين. إنه مثل شجرة مقطوعة وسط الطريق تعرقل سير الآخرين وأنا قرّرتُ تجاوز تلك الشجرة والمضيّ في طريقي".

٦

قبل زواجي بحبيب عشت حياة مختلفة مع رجلي الأمريكي. رُويْ لم يكن ثرياً كما تخيّلتُ وتخيّلت معي بنات الجيران. كان يقطن في منزل كثير الغرف صُمّم على شكل طابق أرضي في ضواحي شيكاغو ويعيش من راتبه التقاعدي. في البداية انبهرتُ بكل شيء في البيت، انبهرتُ بالغرف الواسعة وبـ"المايكروويف" والثلاجة الكبيرة، بالفرن وبآلة الغسيل. وجرّبت استعمال كل تلك الأجهزة العجيبة. وسألتُ رُويْ بانبهار عن الصندوق الذي تتحرّك عليه الصور وتصدر منه الأصوات. كانت تلك أول مرة أشاهد فيها جهاز التلفزيون.

كنتُ طيلة الأشهر الأولى أستيقظ وككل صباح، أباشر مهمتي بتفحّص الأشياء من حولي بمنتهى الجديّة. أجول في غرف البيت مُتحسّسة الأثاث بيديّ غير مُصدّقة أن ما ألمسه أصبح ملكي، ثمّ تلاشت الالتماعة الأولى للسعادة وحلّ مكانها الملل حين نعتاد الاشياء فنرغبُ في امتلاك غيرها. وبدأتُ أقضي صباحاتي في الجلوس في شرفة البيت أتسلى بمتابعة المارّة في الشارع وهكذا بدأت أنتبه للنساء المُتأنقات المتوجّهات إلى وظائفهن وأعمالهن. كُنّ أنيقات

بشعر مصفوف على الموضة وفساتين تلتف حول أجسادهن وتبرز مفاتنهن ويسرن بخطوات سريعة وواثقة رغم انتعالهن أحذية عالية. بدون لي رائعات ومستقلات وقويّات، وشعرتُ بأنني كنتُ مُقصاة من عالمهن. كُنّ يحوّلن الوقت إلى نقود يستطعن بها شراء كل ما يرغبن فيه. بفضل العمل كنّ يُحوّلن أوقاتهن إلى أوراق نقديّة يحوّلنها بدورها إلى أشياء يمتلكنها، ملابس ناعمة وأدوات زينة وحقائب يد وسيارات يقدنها بمنتهى السهولة، بينما جلستُ أنا في البيت مثل كل الأجهزة التي تحيط بي، قطعة إضافية جلبها رُويْ يزيّن بها البيت. ولم يعد هذا يكفيني. أردت معرفة شعور النساء المتّجهات نحو شركات كانت أبوابها موصدة في وجهي. هُيّئ لي وقتها أيضاً أنني رأيتُ الشفقة والترفع في نظرات ضيوف سهراتنا. كانوا ينادونني "الدمية التونسية". في البداية كانت النساء خاصّة يسألنني بفضول "أين تقع تونس؟" فأجيب متلعثمة "في شمال أفريقيا". يُنعمنَ النظر في ملامحي ويقلن متشكّكات "لكنّ بشرتك داكنةٌ"، فتهتف إحداهنّ بحماسة "إذاً أفريقية... يا لهذه الشابّة الأفريقية التي جلبها معه رُويْ مثل تذكار سفر." كم اختنقت في تلك السهرات. كنت أتعلل بأيّ سبب كي لا أجلس معهنّ. أندفع للقيام بواجب الضيافة وأغيّر الفحم للأرجيلة التي جلبها رُويْ معه من تونس ومعها مؤونته من المعسّل. حتى إنني أتذكر في إحدى السهرات وكنت قد اكتسبت إنكليزية جيدة أعلنت بصراحة أنني أشعر بالملل وسأذهب للنوم. لم ينزعج رُويْ بل كتم ضحكته أمام صدمة ضيوفه وقال "مثلما تشائين يا صغيرتي".

وفي سهرة أخرى، قالت إحداهن بلوم "يا لهذه الحياة الصاخبة التي تعيشها يا رُويْ"، ثم أضافت بعد أن نفثت دخان سيجارتها صوبي: "يبدو كأن حياتك بدأت بعدما تقاعدت." اقتربتُ منها مبتسمة وادّعيتُ تعثري بالسجّاد وتركت كأس الروزي تقع من يدي مباشرة على فستانها. نهضت ساخطة لتبحث عن منديل تنظف به اللطخة على فستانها، ونهضتُ من عثرتي من دون أن أساعدها. ربما أخافتني جملتها تلك أكثر ممّا ضايقتني. فرغم كلّ ما قدّمه لي رُويْ نقصني الشعور بالأمان، وكثيراً ما تساءلت بعد تلك السهرة، ما تراني أفعل لو ملّ مني رُويْ وألقى بي خارج حياته، وماذا لو سافر وأعجبه تذكار آخر سواي؟ ما الذي سأفعله وقتها في هذه البلاد الكبيرة العجيبة؟ أدركتُ أن السقف الصلب الذي سعيتُ للحصول عليه بزواجي برُويْ لم يكن مضموناً.

لكنني انحنيتُ، وكان الحظ حليفي لأنني انحنيتُ.

كنتُ أجول في الشوارع القريبة من البيت حين رأيت طرف فستان. فانحنيت وقلبتُ كومة الملابس التي تبعثرت من الكيس المُلقى أمام أحد المنازل. لم أنظر إلى الكيس على أنه قمامة بل نظرت فرأيت القطع الموجودة فيه نظيفة وصالحة للاستعمال. وهكذا برقت في ذهني الفكرة التي حوّلتها إلى حقيقة ثم حوّلتها إلى ذهب. حين فاتحت رُويْ بالموضوع، ضحك في البداية وسألني باستخفاف: "تريدين أن تعملي في ماذا؟" لكنه عندما نظر إلى وجهي، سعل مُحرجاً ثم سألني: "إذاً دعينا نفكر كيف يمكنني مساعدتك... تستطيعين أن تبدئي بإعلانات مدفوعة الأجر في الصُحف تعربين

فيها عن رغبتك في شراء الأغراض القديمة والأنتيكات. ومن المهم أن تفكري في مسألة التخزين أين ستضعين بضاعتك وفي كيفيّة التسويق لها."

"هل أستطيع استعمال المرأب... حتّى السيارة المركونة هناك يمكننا بيعها فلا أحد يستعملها؟" سألتُه بهدوء.

للحظة بدت الدهشة على وجه رُويْ ثم ابتسم وفتح ذراعيه قائلاً: "هذه هي فتاتي..."

حققت نجاحاً لم أحلم بتحقيقه حتى في أكثر أحلامي جموحاً. لم أحتج إلى التأنق مثل بقيّة النساء كي أذهب إلى وظيفتي. ولم أكن رهينة لأوقات الدوام ولصرامة مديرٍ في العمل. لقد كنتُ مديرة لنفسي وامتلكتُ وقتي، احتجتُ فقط إلى ابتسامتي وإلى بعض الحزم وإتقان لغة المفاوضات. تعلمت أن التفاوض على خمسة دولارات قد يغيّر صفقة كاملة والتغاضي عن نصف دولار قد يكسبني زبوناً دائماً. اكتسبتُ مهارات جديدة. لم أتعلم التقاط الأشياء وتقدير قيمتها وبيعها بل طوّرتُ أيضاً موهبتي في قراءة الوجوه، وهكذا ميّزتُ بين من ينوي الشراء ومن يتسلى بتقليب الأشياء وحسب.

لم أنتظر تلقي الاتصالات والردود على إعلاني في الصحف، وانطلقتُ وحدي أتصيّد الأشياء التي تخلى عنها الناس. تجولتُ بعربة التسوّق في شوارع المدينة بحثاً عمّا تخلى عنه الآخرون ولا يزال صالحاً للاستعمال. وحرصتُ على تجنّب الشوراع المظلمة والمريبة. لم أخجل أو أشعر بالعار مثلما قد يظنّ البعض. لقد كان هذا عملاً اخترتُ أن أؤدّيه. كانت مهمتي تقدير قيمة الأشياء التي لم

يعد يحتاج إليها البعض ويحتاج إليها سواهم. لقد كنتُ الوسيط بين الحاجة والاكتفاء، الوسيط بين خجل الانحناء وكبرياء الترفع. وهكذا التقطت الكراكيب، نظفتها ولمّعتها حين احتاجت إلى التلميع وأصلحتُ القطع التي أصابها العطب وهيّأتُ لها رفوفاً وطاولات عرض رتبتها فوقها بطريقة جذابة.

"مدهش ما جمعتِه يا صوفيا، تحتاجين الآن إلى اسم جذاب"، قال لي رُويْ بعد تجوله في المحلّ. فكّرنا معاً وسجّلنا أسماءً على ورقة، اخترتُ من بينها اسم "حلم أفريقي" فقد كان مشروعي حلماً تحقق.

حدث هذا منذ ثلاثين سنة أو أكثر وما زلتُ أستمتع بمذاق النجاح كلما تذكرته. نجحت تجارتي حتى إنني وظفتُ شابّين للعمل عندي يحملون كل ما ثقل من بضاعة ويوصلونها إلى بيوت المشترين. تحوّل "حلم أفريقي" إلى محلّ شهير في شيكاغو. كان زبائني أمريكيين بالأساس لكنني اكتسبت زبائن أجانب أيضاً، رجال أعمال أوروبيين يزورون المحلّ عندما يمرّون بالمدينة وأثرياء عرب من جامعي القطع النادرة. تعلمتُ الكثير بفضل مهنتي واكتسبتُ الكثير من المعارف وعرفتُ أسرار وأمزجة البشر وتاريخ البلدان. كل قطعة اشتريتها اشتريتُ معها تاريخ الأيدي التي أمسكتها والبلدان التي عاشت فيها وعبرتها والخيبات التي شهدتها والأحداث التي مرّت بها حتى وصلت إلى يديّ. كنت أطرح الأسئلة نفسها كل مرة: "أيّ سنة اشتريت هذه القطعة؟ كم كان سعرها الأصلي؟" وبين الاجابتين أستمعُ إلى قصص مدهشة. لم أعرف عن تاريخ ساعة جيب والدلورا

ولا عن مبسمه المصنوع من خشب الكرز، بقدر ما عرفت قصّتها الشخصية ونتفاً من قصّة شعبها. حدّثتني كيف هربت مع أخيها بعدما قُتل والداهما في عملية التطهير المنظمة التي تعرّض لها الأرمن في تركيا أوائل القرن الماضي. حدثتني كيف مشيا طيلة أيام عبر الطرقات الجبلية الملتوية وكيف تعثرت ووقعت عشرات المرات وحملها أخوها على كتفيه بصبر إلى أن لحقا بآخرين واصلوا معهم رحلتهم على قافلة حمير. وصفت لي لورا حبّها لفصل الشتاء لأنهم حين وصلوا أخيراً إلى سوريا بسلام استقبلهم الشتاء هناك بندف الثلج. حكت لي كيف تدبّر لهما رفاق رحلتهما المال كي يواصلا رحلتهما ويتمكنا من اللحاق بالسفينة التي ستنطلق من ميناء لبنان نحو العالم الجديد. ولم أعرف من إليزابيث حكاية طقم الشاي المصنوع من البورسلين الفاخر والمُتكوّن من مئة وسبعين قطعة، تلقته هدية زواج قبل ثلاثين سنة، ولكنّي عرفت عن إيرلندا أنها بلاد خضراء تُطوّقها المياه من كل جهة ويسكنها بحّارة ومزارعون وتحلق فوقها النوارس طيلة النهار، وفي أيام الصيف الطويلة تداعب أشعّة الشمس الوجوه والكائنات حتى التاسعة مساءً.

تعلمتُ أن للدفاتر قيمة أكبر إن كانت عليها آثار شخصيّة، سواء كانت لطخة دم أو لطخة حبر، سواء كانت ملاحظة كُتبت بقلم رصاص أو بقلم حبر. وأدركت أن للكتب مُحبّين أوفياء فخصّصت لها خزانة بواجهة بلورية تحميها من الغبار، جمعتُ فيها مذكّرات مشاهير ويوميات غرباء مجهولين وكتباً مستعملة حملت رائحة السجائر وآثار الرطوبة. في البداية تساءلتُ من سيهتمّ بشراء تلك

الدفاتر القديمة التي يعود معظمها إلى القرن الماضي، ثم حين شاهدت كيف اجتذبت زبائن يزورون المحلّ بانتظام أو يتصلون هاتفياً ليسألوا عن جديدنا، أدركت قيمتها. ما الذي قد تعرفه امرأة مثلي عن صكوك بنكيّة باعها لي عجوز أمريكي من جملة ما باعني من وثائق وتحف وأثاث، قبل أن يستقر به المقام في أحد بيوت المسنين؟ اشتريتها وفكرتُ أنه سيأتي يوم يرغب فيه أحدهم بشرائها مهما طالت السنون، وابتسمتُ لنفسي حين فكرت أنه كلما طالت السنون تضاعفت قيمتها.

اشتريتُ مسَدّساً صغيراً ذهبي اللون ذا طلقة واحدة، خشيت أن لا أجد له مشترياً لكنني بعته بعد سنوات بسعر خيالي لأحد جامعي الأسلحة النارية. واشتريتُ أقنعة أفريقية من الخشب تُستعمل في المسارح، وابتعتُ بمئة دولار قبّعة وعكّازاً وحذاءً مُفلطحاً أقسم الرجل الذي باعها لي أنها تعود لشارلي شابلن. لم أهتمّ بقسمه وصدّقتُ حدس يديّ اللتان تعلمتا قراءة تاريخ الأشياء ومعرفة عمرها.

انتشر اسم "حلم أفريقي" بسرعة أكبر حين وزعنا نشرات تسويقية طبعت على ورق أصفر، وزّعها صبيّ مع جرائد الصباح التي يُلقي بها أمام المنازل. اتفقنا أن أمنحه دولاراً مقابل كل زبون يرسله. وتلقيت ردوداً كثيرة على إعلاني في الصحف "نشتري كل ما هو قديم ومستعمل". وعندما كثرت البيوت التي يجب عليّ التوجّه إليها لمعاينة بضاعتها، نصحني رُويْ بالاكتفاء بإدارة العمل من المحلّ وإرسال عامل بدلاً منّي. "من الخطر الدخول إلى منازل غرباء. أنتِ

لا تعرفين بمن وبماذا قد تفاجئين هناك، على الأقل اصطحبي معك العامل...»

زرتُ بيوت سيّدات تجاوزن السبعين اتصلن بي ردّاً على إعلاناتي في الجرائد، بينهن مُتشكّكات كلّمنني من خلف خصّاص الباب بينما فصلت بيننا سلسلة الأمان. وبينهن سيدات لطيفات تمتعن بوضوح ذهني مُدهش رغم تقدّمهن في السن، وتمتّعن باللطف الكافي ليدعونني لاحتساء الشاي في غرفة المعيشة. حدثنني عن تاريخ الأشياء التي بعنني إيّاها وعن سنوات الوحدة يقضينها بحثاً عن إبر الصوف المهملة في الزوايا والقطة التي عاشت معهنّ آخر عشر سنوات ووجدنها أخيراً ميتة في سلّتها. تحسّرن على الأبناء الذين لا يزورونهن والأحفاد الذين لا يرونهم سوى في المناسبات. حدثنني عن وصفة مُربّى الإجاص "يجب أن تضيفي قطرات من الليمون كي يكون ألذ"، وعن ضرورة أن أجرّب مُربّى اليقطين في الخريف وعن رشّة خفيفة من سكر الفانيليا تُضاف إلى عجينة الخبز قبل أن يُطهى في الفرن. لكن أكثر الحكايات تأثيراً بي وعلقت بروحيّ كانت حكايات النساء اللاتي عبرن بحاراً ومخاطر لا تُحصى في سبيل النجاة من حروب مرعبة. لا أنسى الفيتنامية "ثُويْ" التي هربت من هانوي في زورق غير شرعي عبر بها مع آخرين البحر وصولاً إلى ماليزيا حيث قضوا أسابيع طويلة في مخيّمات للاجئين قبل أن تقبل طلباتهم اللجوء ويطيروا إلى أمريكا الشمالية. باعتني "ثُوي" قبّعة مخروطية الشكل ما زلت أحتفظ بها وتمثالاً ذهبياً صغير الحجم لبوذا بعته في إحدى الصفقات.

كذلك لا أنسى ميتشيكو اليابانية التي باعتني كيمونو أبيض اللون من الحرير الأصلي ارتدته أمّها في بدايات القرن الماضي عندما التحقت بأبيها الذي عمل مزارعاً في الحقول الأمريكية. كما لا أنسى الشعارات المناهضة للنازية التي كُتبت على أكياس أرز اشتريتها من جامع هاوٍ لمتعلقات الحروب وقد باع لي أيضاً أغلفة رصاصات ادّعى أنها استُعملت في الحرب الأهلية الأمريكية. حصلتُ على نسخ مختلفة من الإنجيل، نسخ مذهبة الأغلفة وأخرى مقاسها بحجم راحة يد ونسخ مُجلدة يدوياً. وحصلت على نسخة ملطخة بالدم، قال لي الشاب الذي باعها لي إن جدّته تسلّمتها مع جثة جدّه الذي شارك في الحرب العالمية الأولى.

باعت لي سيدة سبعينية كتاب وصفات كتبتها بيدها. "لم أنجب بنات أورثهن أسرار وصفاتي ولا أبناءً أمنح زوجاتهم سرّ مطبخي" قالت وهي تقدّم لي المخطوط بيدين مرتعشتين. اشتريت لوحات سيّارات قديمة وعملات معدنية نُقشت عليها رؤوس هنود حمر، ونسخاً من جرائد لم تعد تُطبع. وابتعتُ عملات معدنية عثمانية وقفاز ملاكمة قيل لي إن محمد علي كلاي استعمله في بداياته، و"مفتاح حياة" حجرياً باعه لي مهاجر مصري ادّعى أنه مصنوع من نفس الحجر الذي صُنعت به الأهرام. كما عُرضت عليّ أشياء عجيبة وقيلت لي حولها حكايات مُلفقة حيث ظنّ الناس أنه كلما كانت الحكايات غريبة سَهُل إقناعي بقدمها وندرتها، حتى إن هناك شاباً حاول أن يبيع لي قطعة معدنية رمادية اللون بحجم نافذة مدّعياً أنها باب إحدى المركبات الفضائية التي تناقلت الصحف وقتها خبر

تجوالها ليلاً في صحراء تكساس. ادّعى الشاب أنه تمكن من اقتلاع الباب والهرب به خلسة قبل أن تتفطن له المخلوقات الفضائية. لم أصدّقه، كنت أكيدة من أنه استولى على قطعة الخردة تلك من مقبرة الخردوات التي تعجّ بهياكل السيارات والقطع الحديدية.

استقبلني في بيوت أخرى ثملون تحرّشوا بي ومدمنات يائسات لم يمتلكن شيئاً يعنه لي، والتقيت بأشخاص يريدون بيع ما لديهم بنفس القيمة الأصلية أو بقيمة مضاعفة. كان اليأس أكبر خطر واجهته في مهنتي. كان اليأس والحاجة الملحّة للنقود يُحوّلان الناس إلى أشخاص خطرين. أذكر أن أحدهم هدّدني بسكين المطبخ إن لم أمنحه المبلغ الذي أراده لإنهاء صفقة شراء جهاز فونوغراف ثمّ خفض السكين وقال: حتى هذه السكين نادرة، ما رأيكِ، نضيفها للصفقة مقابل مئة وخمسين دولاراً؟" يومها خفتُ واشتريت الفونوغراف والسكّين من دون اقتناع وأدركتُ أن رُويْ كان مُحقاً.

كانت التجربة أساس العلم الذي اكتسبته وتعلمتُ أنّ لكل بضاعة محبّيها. كان التسويق لبضاعتي يحتاج إلى مهارة استعراض تواريخ لم أكن بالضرورة أعرفها فبحثتُ عنها في الكتب وسجّلتها على دفاتر مثلما سجّلت أسماء الزبائن الذين اشتروا بضاعتنا. قامت تجارتي على التاريخ الشخصي والزمني للأشياء وحققتُ النجاح فيها لكنني أدمنتُ الأشياء بدوري حتى صرت أراكمها. كلما اشتريت تضاعفت رغبة التملك بداخلي وصنّفتُ الأشياء وفق قيمتها وهُوستُ بخوفي من سرقتها. أدمنت الأشياء وأحببتها فقد كشفت لي كبر العالم وكبر أمريكا التي استطاعت أن تحتوي هذا العالم. لقد كانت أمريكا قرية

عالمية جذبت كل أنواع البشر من أقاصي الأرض وكنتُ واحدة منهم، مثل مغناطيس سحبتنا جميعاً نحوها. كثيراً ما تساءلتُ بعد الاستماع إلى حكايات الأشياء وتواريخها، لو تمكنت من الدراسة والالتحاق بالجامعة، فهل كنت لأعرف كل ما عرفته بفضل الأشياء. لقد غيّرني العمل والنجاح الذي حققته وحوّلاني إلى امرأة أخرى. لم يكسباني الثقة بالنفس وحسب بل أكسباني أيضاً ثقافة عامّة فبدأت أتحدث بثقة أكبر في سهرات رُويْ واستدارت الرؤوس نحوي وافتُتن بي الرجال أكثر حين قلدتُ مارلين مونرو وارتديت ملابس شبيهة بملابسها وتصرّفتُ مثلها. لقد كان الناس مهووسين بمن يحبّون من المشاهير ويرغبون في اقتناء متعلقاتهم الشخصية. كثيرون زاروا محلي بحثاً عن متعلقات لمارلين مونرو "قطعة ملابس أو خصلة شعر، أي شيء حقيقي من مارلين سيكفيني." قال أحدهم لاهثاً من فرط الإثارة وقد التمعت عيناه بجنون. وهكذا تعرّفتُ إلى مارلين وتعرّفت إلى عالم الأفلام وهناك في ظلمة السينما تعلمتُ الانفصال عن حياتي وعن العالم في الخارج. أنسى حركة السيّارات ووجوه الناس في الشارع، أنسى نفسي وحسابات البيع والشراء بالمحل وأغرق في الحياة الوردية للبطلات لكنني كرهت ضعفهن ورقتهن الفائضة عن الحدّ. افتتنتُ أنا أيضاً بمارلين وبضحكتها على وجه الخصوص وتمنيت أن تكون ضحكتي بروعة ضحكتها، لكنني رغم افتتاني بها شعرتُ بأنني أفضل منها. كانت تبدو امرأة قابلة للانكسار بسهولة الأمر الذي جعلني أستخف بها أنا التي تحوّلتُ إلى امرأة لا تسمح للمشاعر بأن تقود حياتها وتُوجّه قراراتها. امرأة لا تمسك

منديلاً تمسح به دموعها بينما تشاهد مشهداً مؤثراً على الشاشة. لم أعد أتمتع بالرقة التي تتميّز بها النساء عن الرجال. لقد كنتُ امرأة صقلت نفس مثلما يصقل النحاتُ الصخر.

في تلك السنوات كانت حياتي شبيهة بالسير على طريق مُعبّد بالقطن. راكمتُ الأرباح وفتحتُ حساباً في البنك حتى إنني تجرّأت وقُمت ببعض المُرابحات المضمونة وأرسلتُ حوالات مالية إلى أهلي بانتظام. لم أرغب ولو مجرد رغبة عابرة في إنجاب الأطفال ورُويْ بدوره لم يهتم فقد كان لديه أبناء من زيجته السابقة، شابّان وفتاة تكبرني بسنوات. كان الحظ والسعادة رفيقيّ إلى أن قرّرا هجري. في ذلك اليوم وككل صباح منذ خمس عشرة سنة، استيقظتُ قبل رُويْ وجهّزت الإفطار. ناديته أكثر من مرّة إلا أنني لم أتلقَّ ردّاً. تسارعت دقات قلبي حين أدركتُ أن هناك خطباً ما. قطعتُ المسافة التي تفصل بين المطبخ وغرفة النوم في ثوانٍ عبرت خلالها رأسي عشرات الأفكار. كان رُويْ مُستلقياً على ظَهره بسكون حتى إنه بدا لأول وهلة مستغرقاً في النوم. حرّكته بعنف وناديته بعدم تصديق "رُويْ استيقظ" ثمّ استلقيتُ بجانبه على الفراش ووضعت رأسي على صدره وبكيتُه.

لا أعرف كيف رُتّبت أمور الجنازة. تولى جاك ابن رُويْ الأكبر كل التفاصيل. في المأتم صافحت كل من عزاني دون أن أراهم أو أتذكّر أسماءهم. كنت أنظر إلى الناس حولي من خلال غشاوة. كانت تلك أول مرّة أواجه فيها الموت وجهاً لوجه. حبيب أيضاً حضر المأتم، نظرتُ إليه دون أن أراه. كنت مثل من استيقظ من التخدير

وتفجّر الألم في جسده. نعم صُدمت وحزنت لموت رُويْ. نعم، لقد أحببت رجلي الأمريكي، حبّاً هادئاً قائماً على الامتنان.

بعد الإعلان عن وصيّة رُويْ جُنّ جنون أبنائه، وخاصة الولدين، بينما لم تهتم ليزا التي لطالما تجاهلتني وتصرّفت كأنني لم أكن موجودة أصلاً. أمّا ابناه اللذان عاملاني بلباقة في الماضي فانقلبا عليّ. شكّكا في الوصيّة وفي الحالة العقلية لأبيهما حين كتبها. وقالا كلاماً جارحاً لاستفزازي وكرّرا نفس الجملة مراراً وتكراراً "إن كنتِ تملكين ذرّة كرامة فستغادرين هذا البيت فوراً". لكن كلامهما لم يؤثر بي فقد صنعتُ لنفسي منذ سنوات درعاً من اللامبالاة يحميني من كلمات الآخرين. جئتُ إلى هذه البلاد لأترك جذوري تمتدّ في أرضها. أوكلا القضية إلى محامٍ نصحهما أن لا يهدرا أموالهما ووقتهما في مثل هذه القضيّة. كانت وصيّة سليمة وغير قابلة للطعن، كتبها رُويْ قبل سنوات من وفاته. لقد أورثني رُويْ في أحد أفخم شوارع شيكاغو، بيتاً تضاعفت قيمته بوجود محلي "حلم أفريقي".

بعد مضيّ أشهر على وفاة رُويْ، انتبهتُ إلى استمرار حبيب في زيارتي ولو على فترات متقطعة. احترتُ في تفسير زياراته ودوافعها فقرّرت مواجهته. وهذا ما حصل في اليوم الذي دفع فيه حبيب الباب فتدافعت الأجراس الصغيرة المعلقة أعلى الباب مُصدرة صوتاً لطيفاً. رفع حبيب رأسه بحثاً عن مصدر الصوت، ابتسم للأجراس المُصمّمة على شكل فيلة برونزية اللون ومازحني: "أصبحتِ تمتلكين فيلة الآن يا صوفيا."

دعوته للجلوس مُتفحّصة مظهره الغريب. كانت لحيته خشنة

وشعره مُهملاً وأحاطت بعينيه هالات سوداء داكنة وكأنه لم ينم منذ ليالٍ. وبدت على ملابسه علامات الإهمال ونضحت منها رائحة الفقر. تلك الرائحة أعرفها جيداً حتى إن مرّت خمس عشرة سنة منذ خلّفتها ورائي. لم أحتج للكثير من الذكاء أو الشرح لأفهم تلك النظرة في عينيه، كانت نظرة رجل تلاطمته الحيطان. اقترحت على حبيب بلامبالاة: "ما رأيك أن نذهب إلى المقهى عند الناصية فأنا لم أتناول إفطاري بعد."

مظهر حبيب والحالة التي كان عليها جعلاني أشفقُ عليه. كان من الواضح أنه خسر الكثير من وزنه حيث بدت ملابسه كبيرة عليه وكأنه استعارها من رجل أضخم منه. طلبتُ إفطاراً له وشاياً لي وتحدّثتُ عن حالة الطقس وناطحات السحاب الجديدة التي تشيّد وسط المدينة، تحدّثت دون توقف وأنا أراقب حركة فكّه الرتيبة وهو يمضغ الطعام. ثمّ سكتُّ واكتفيت بالنظر إلى المارّة من خلف زجاج المقهى. لقد كان حبيب جائعاً إلى درجة أنه لم ينتبه لصمتي ولا لكذبي بخصوص تناول الإفطار. حين أنهى تناول آخر قضمة من فطيرة التفاح، نظرت إليه بجدّية وسألته: "لماذا تبدو في حالة سيئة؟"

– أنا بخير... بخير... ما الذي يدفعكِ لقول هذا؟

– ملابسك رثة ومقاسها كبير عليك، كأنك سرقتها من رجل آخر. وعيناك مثل عينيْ راكون لم ينم منذ عدّة ليالٍ، ولا يعلم سوى الله متى حلقت شعرك آخر مرة. كل هذا كافٍ كي أقول إنك لست في حالة سيئة، أنت في حال يُرثى لها!

حدّثني يومها حبيب عن إفلاسه الذي تسبّب به نور الدين باستعماله

غلّة المطعم في القمار. وكيف اضطرّ للبدء من جديد والعمل في مهن صغيرة "حتى إنني ذات صيف عملتُ في بيع الآيس كريم للمصطافين ووقفتُ وراء عربة متنقلة أراقب الناس يستمتعون بالبحر وأنا ألعن نور الدين. لكنّ مشاهدة الصبايا الجميلات يتقافزن في البحر ويتحرّكن برشاقة على الشاطئ، كانت أمراً مبهجاً للعين والقلب، هوّن عليّ العمل" قال حبيب ضاحكاً. ثمّ سكت لوهلة مرّر فيها يديه على وجهه يمسحُ عرقاً لا وجود له. "لم أتعافَ قطّ من تلك الضربة، ولم أجد شريكاً أو مموّلاً لأيّ مشروع."

في الحقيقة لم أتوقف يوماً عن متابعة أخبار حبيب. كنت أتابعها حتى قبل ذلك اليوم بسنوات وعرفتُ أخباره أولاً بأول من رُويْ رغم أنني تجنّبتُ الاقتراب من عالمه مثل من يتجنّب مرضاً تعافى منه. في سنواتي الأولى بأمريكا أحببت رُويْ مثل أب وأحبّني مثل عشيقة ولم أفكر في حبيب كرجل أو أسمح لنفسي بالحنين إليه. كان رُويْ يحدثني عن نجاحات حبيب ومطعمه فأتضايق وأفكر بأني قادرة أيضاً على النجاح. أستمع لرُويْ يتحدث بانبهار عن حبيب: "مدهش هذا الصبيّ! لم يخب ظنّي به! منذ التقيته أول مرة في فرنسا عرفت أنه متميّز. كان حبيب الوحيد الذي اهتمّ بأمري وزارني بينما لم يتكبّد أبنائي عناء البحث عنّي والاستفسار عن مصيري رغم أن إدارة المستشفى أبلغتهم بتعرّضي لحادث وبوجودي لديهم، لكنهم تجاهلوني كما لو كنتُ ورقة مدعوكة لم تعد لهم حاجة بها فاستغلوا أول فرصة للتخلص منها".

خلال سنوات زواجي برُويْ، لم يقترب منّي حبيب قط. كان

يلتهمني بنظراته في حفلات نهاية رأس السنة وسهرات السبت القليلة التي حضرها في بيتنا. كان يكتفي بإلقاء التحيّة فقط، يقبّلني على وجنتيّ قبلات فاترة ويبتعد. لم يكلمني على انفراد قطّ ما عدا المواجهة الوحيدة التي تواجهنا فيها بعد زواجي برُويْ ووصولي إلىَ شيكاغو. حدث هذا في أول مرّة زارنا فيها حبيب، وقف في الممر الفاصل بين غرفة المعيشة والمطبخ ونظر إليّ مثل شخص استيقظ من منام مزعج وحين فتح عينيه رآني، صرخ في وجهي: "خائنة! كيف تزوّجتِ صديقي؟ وانسي أنه صديقي، كيف تزوّجت برجل هكذا وصل فَجأة من وراء البحر؟"

"ليس مهمّاً من كان الرجل ومن أين جاء... أنت لاحقت أحلامكِ وأقصيتني منها. وأنا فعلتُ بالمثل. ورُويْ يحبّني ما يكفي كي أبادله الحب." أجبته وابتعدت من طريقه لكنّه أوقفني وسألني بصوت خافت: "تزوجته لماله؟" نظرتُ إليه باستخفاف وابتعدتُ دون أن أجيبه.

طيلة سنوات زواجي برُويْ تأرجحت بين شعور الامتنان ورغبتي في الهرب منه. كنت لا أزال في عنفوان شبابي وتخيّلت في ليالي الملل كيف ستكون الأمور لو مارست الحب مع رجل آخر أكثر شباباً. سيطرت عليّ رغبة جامحة في تجربة اللذة التي تحتدم عند فوران الجسد بالشهوة. قاومت رغبتي تلك إلى أن التقيتُ بجوني.

القسم الثالث

درجٌ يقودُ للطابق الثاني

١

وجدت داخل الكاناويطة ثلاث رسائل من عمّي نور الدين ورسالة وحيدة من كارول تعلن فيها عن انفصالهما. بعدما قرأت رسائل عمّي مراراً وتكراراً التبست عليّ الحكاية. فهمت وصعب عليّ التصديق. أحبّت كارول أبي ثم أحبّت أخاه. أو ربّما خانت أبي مع أخيه. لا أفهم لماذا قدّمت لي عمّتي هذه الرسائل الآن ولا عرفتُ ما هي الإجابات التي توقعت منّي اكتشافها. وبقدر ما كانت الرسالة الأولى إيجابية أحزنتني بقيّة الرسائل.

شيكاغو ١٩٧٥

مريم الغالية،

كم هي مذهلة أمريكا! لا تصدّقين كمّ المفاجآت التي أعيشها منذ وصلت. لم أتخيّل يوماً أنه يوجد هذا العدد الكبير من المجانين في مدينة كبيرة مثل شيكاغو. البارحة مثلاً لفت انتباهي رجل وقف وسط الشارع يصرخ. لم يلتفت إلى كلامه إلا بعض الفضوليين وكنتُ واحداً منهم، اسمعي ماذا يقول: "الصينيون قادمون، قال في شهقة

أرعبتني من دون أن أفهم مغزى كلماته، ثم رفع ذراعيه إلى الأعلى في حركة تنبّئية ودار حول نفسه دورات متسارعة قبل أن يتوقف ويصرخ: ألا ترون؟ سيقوم الصينيون بغزو العالم قريباً وستكون هذه هي النهاية! نهاية أمريكا كما عرفناها... سنعود إلى العصر الحجري... نحن آلهة الصناعة والإنتاج والأحلام السعيدة، صنعنا كل شيء ولوّنا كل شيء، صنعنا زبدة الفول السوداني والكوكا كولا بمذاق الفانيليا وابتكرنا الشوكولاتة برماد البراكين الأندونيسية. صنعنا آلين سيعملون بدلاً منا وسيحبّون بدلاً منا وسيحيون بدلاً منّا."

على مهلك يا رجل، فكّرت، هذا كم وافر كبير من المعلومات وواصلت طريقي. لكنني فكرت طيلة النهار في كلامه:

"حوّلنا الأشجار إلى ورق للكتابة وورق للجرائد ولمناديل ورقية للطاولة وأوراق صحّية. ومزجنا الورق أو نسيجه أو أيّاً كان ما يُصنع به مع البلاستيك فصنعنا حفاضات للأطفال. وحين تراكم كل شيء ألقينا به في البحر وفي المحيطات فتكوّنت قارة سادسة، قارة القمامة، يتآكلها البلاستيك. وماذا فعلنا أيضاً؟ سيبدع الصينيون في التصنيع وسيعبرون البلدان والمحيطات والقارات بإنتاجاتهم. وإذا ما حدث ذات يوم انهيار ثلجي في أحد القطبين فسيستغلونه للوصول إلى آخر

الدنيا، ربما للوصول إلى الدنمارك أو آيسلندا، بينما ماذا فعلنا نحن؟ خرّبنا كل شيء."

كلامه يدعو للتأمّل والتفكير. أنا سعيد في هذه المدينة وأتمنّى أن أجد في أقرب وقت طريقاً يوصلني إلى عالم التمثيل.

نور الدين

التقطت الرسالة الثانية بلهفة. أدهشتني المسافة الزمنية التي فصلت بين الرسائل الثلاث. خطرت لي الفكرة المبهجة بأنه ربما هناك رسائل أخرى من أبي، نسيت عمّتي إحضارها من بيتها.

شيكاغو ١٩٧٧

أختي الغالية،

ربما لا تعرفين يا مريم أنني في آخر زيارة لي وقفت على حافة قنطرة[١] بنزرت لأدخن متلذذاً بالسجائر في الصباح المنعش. تلألأت المياه تحتي ولامستها أشعّة الشمس بخفة، فكرت طويلاً ونظرت إلى البحر الأدكن الزرقة والقديم قدم العالم. نظرتُ إلى سطح البحر مُحاولاً أن أستشفّ أعماقه باحثاً عن انعكاس وجهي من هذا الارتفاع. تعرفين، هذا الجسر نقطة ارتكازي، كلما ضعتُ عدتُ إليه. ماذا لو تسلقت سور هذا الحائط القصير؟ ألتفت إلى علامة التحذير

١ التسمية المحلية لجسر بنزرت.

المرشوقة أول الجسر وأبتسم لها. لن يتغيّر شيء إذا ما تسلقت السور ووقفت مستقيماً لدقيقتين، مستنشقاً هواء الصباح الطريّ. لو ألقيت بنفسي فلن يتوقف العالم. إذا ما صالبت ذراعيّ في الهواء المُنعش لشهر مارس المجنون. أسحب نفساً واحداً ثم ألقي بنفسي.

كثيراً ما قرأتُ في الجرائد عن منتحري جسر "الغولدن غايت" في كاليفورنيا. هناك من المنتحرين من يختار لحظته بدقة خلال الزحام المروري في الصباح. يتقدّم الطابور ببطء حتى تكاد السيّارات تتلامس، وفجأة يُسارع أحدهم بفتح باب إحدى السيارات ويثب بسرعة على حافة السور الحديدي للجسر. في لحظة ينتهي كل شيء. لا ينتبه الكثيرون لما حدث ولا يُسمع شيء، لا صرخة ندم، لا صوت استغاثة، لا شيء. حتى صوت ارتطام الجسد بسطح الماء لا يُسمع. هناك نوعان من المنتحرين. المتسرّعون، لا يختار الواحد منهم وقته جيداً ولا الموقع المناسب للقفز. يتدحرج جسد المنتحر على الصخور الناتئة أسفل الجسر الى أن يستقرّ جثة هامدة. وهناك المُخططون، صبورون في اختيار لحظتهم. يعاينون الجسر لأسابيع طويلة ويرتقبون لحظتهم بصبر. يثب أحدهم على حافة السور ثم، في نفس واحد، كما كثيراً ما تخيّلتُ نفسي أفعل،

يفرد ذراعيه كجناحين ويُلقي بنفسه نحو صفحة الماء. يُرفرف لدقائق يتوهّم فيها أنه طائر خارق قبل أن يهوي إلى القاع في كتلة واحدة، كتلة من اللحم والعظام والأحلام والضحكات والأشواق وخيبات الأمل، كتلة من الأيام والساعات والدقائق، كتلة من الهرمونات والرغبات ومن الشبق المُستعر ومن الشبق المنطفئ، كتلة نظفت نفسها جيداً بالمناديل الورقية المُصنعة من جذع شجرة اجتُثّت في مكان ما من الغابات المطلة على نهر الميسيسيبي، كتلة من الشعر الزائد والشعر المتساقط، كتلة من الأعصاب ومن البروزاك، كتلة من العدم.

تسألينني لمَ لم أعد إن فشلت في تحقيق أحلامي؟ لأن كلمات أبي لا تزال تدوّي في عقلي. صحيح أنني هاجرت إلى أمريكا لكنني لم أنجح في الوصول إلى عالم التمثيل ولا في أي عمل آخر، حتى في مطعم حبيب أخفقتُ. لست مستعداًّ لسماع أبي يقول نفس الكلام: "افعل شيئاً! استيقظ وابحث عن عمل في مصنع السكّر أو مصنع الحليب، هذا لا يهم. المهم افعل شيئاً حقيقياً بدلاً من قضاء الوقت في تقليب الصور. أتظن أنني لا أعرف ما الذي تفعله كل ليلة أمام صور عاهراتك الرُّوميات؟ تظن أن كذبتك انطلت عليّ مثلما انطلت على أمّك الساذجة حين صرّحت لها بقرارك

"من اليوم فصاعداً سأغسل ملابسي الداخلية بنفسي يا أمي لطيفة."

تريد أن تصبح ممثلاً، أهذا ما تريد؟ وتريد أن تمثل دور "كوبوي" أيضاً، أضحكتني يا ولد. منذ بضع سنوات فقط كانت أمّك تمسح مؤخرتك بخرقة مهترئة واليوم تريد أن تصبح ممثلاً؟ قم بكل ما تريد فعله في خيالك، اصعد للقمر وضاجع في أحلامك العاهرات اللاتي تحتفظ بصورهنّ، لكن عندما ينبلج الصبح كن رجلاً وابحث عن عمل يطعمك! تريد أن تتحوّل إلى صورة متحركة مثلهم، سحرك الوهم. أنا أيضاً سُحرت مثلك حين دخلت إلى السينما وشاهدت صور هؤلاء الناس الذين لا نستطيع لمسهم ولا نرى مثلهم في البيت ولا في الطريق. أعرف أنك تذهب إلى سينما "أولمبيا"، لذلك دخلت إلى سينما "ريكس" وشاهدت فيلم "الفتاة التي تحمل حقيبة". لا أذكر حكاية الحقيبة لكنني أذكر الفتاة جيداً... شابة إيطالية رائعة. لا أظن أنكما شاهدتماه أنت أو أخوك فأنا أعرف أنكما مُولعان بأفلام رعاة البقر وبأصوات الرصاص. أنا رجل حقيقي، لا أعيش على الأوهام، استيقظت سريعاً من تأثير هذا السحر. السينما لن تطعمك خبزاً ولحماً ولن تخرج تلك الإيطالية من الشاشة وتتحوّل إلى امرأة حقيقية.

اذهب وانضمّ إلى فريق البناة الذين سيبنون "القنطرة"،

هذا شيء صلب وحقيقيّ، ستبنيه سواعد الرجال من الإسمنت والفولاذ والعرق. اعمل شيئاً حقيقياً بدلاً من هذه الظلال المتحرّكة في العتمة تكدّسها في تلابيب خيالك. توقف عن قراءة هذه التفاهات "مجلات الكوبوي" واخرج وكن رجلاً حقيقياً. أتعرف بماذا يلقبونك في المقاهي؟ نور الدين جُورنو."

هكذا قال أبي وأصغيت إليه يومها مختبئاً وراء شجرة الصمت. ما زال كلامه يدوّي في أذنيّ كلما أخفقت.

أبي الذي مسح الأختام عن الذبائح بصبر ونادى على بضاعته بأجمل الكلمات. تغزل بكبد الغنم الغني بالحديد وباللحم الطازج يغرق الإصبع في طراوته قبل السكين. ولم يشتر منه أحد. تقف النساء أمام أبي للحظات، ينظرن إليه بتردّد ولا يقتربن منه. تشدّ الواحدة منهنّ السفساري بإحكام، ترفع طرف القماش الأبيض حتى يكاد يغطي وجهها وتنظر إلى صاحب الكلام الحلو ثمّ تمضي. عندما تعب من الانتظار وفهم أن لا أحد في المدينة سيشتري لحم الخراف الطريّ والغالي، قامر وباع بالكلمة، بوعد الدفع لاحقاً. تديّن منه كل سكّان المدينة واشتروا لحماً طريّاً من دون أن يدفعوا مليماً، لا وقتها ولا بعدها. وشموا أيّامه بأختام خضراء لا تُمحى. وحين فهم أخيراً خسارته، توقف عن الانتظار. أطفأ جهاز التبريد، ترك المعالق

الحديدية فارغة يتدلى منها الفراغ وأغلق المحلّ. فشل أبي في تجارته. ظنّ أنها لعبة ورق، ولأنه كان مبتدئاً في التجارة وفي لعب الورق واعتاد الحظ والربح السريع، خسر كل شيء. لا أريده أن يقرأ الفشل على وجهي، لذلك اعذريني إن طلبت منك أن لا تخبري أحداً من العائلة أنني هنا في تونس.

أجل، كنت أعلم بأنهم أطلقوا عليّ اسم نور الدين جُورنو ولم يضايقني هذا. كنت أشتري وأبادل جمع كل مجلات الكوبوي التي تصوّر لنا قصص ومغامرات الأفلام. أحب هذا العالم وأعتقد أنني أنتمي إليه. حتى إنني حين كنت أصغر جرّبت كتابة فيلم مستوحى من حياتنا اليومية لكنني لم أستطع أن أصنع بطلاً مثل أبطال الكوبوي في واقعنا الفقير من الأحداث والمغامرات. كنت أحلم بالخروج، منذ هاجر حبيب إلى أمريكا بمساعدة رُويْ وأنا أحلم بأمريكا. كنت أراها سفينة نوح عملاقة سأصل إليها ذات يوم. سأتشبّث بأسفل السفينة، سألتصق بقاعها تحت الماء إن لزم الأمر أو أتشبّث بدرابزين السلّم الذي يقود للصعود إليها. سأتشبّث بأيّ شراع يتدلى منها، سأكون الحشرة التي تحلق على كتف بحار والوردة التي علقها الربّان في عروة قميصه. وصلت إلى أمريكا لكنني أخفقت هناك.

نور الدين

أربكتني الرسالة الثالثة وجعلتني أتخيّل سيناريو غريباً لأحداث وقعت بين الأخوين ولا تزال مجهولة بعد مرور كل هذه السنوات. بموت أبي ما من أحد قادر على كشف سرّ الاختفاء الغامض لعمّي. خطر لي أن تكتّم أبي طيلة هذه السنوات لا يُمكن أن يُفسَّر إلا بتورّطه في اختفاء عمّي. بموت أبي ستموت الحقيقة وتُدفن معه نهائياً. لا أحد يعرف ما الذي حدث بالضبط في السبعينيات سوى ثلاثتهم، أبي الذي كنا بانتظار وصول جثمانه من أمريكا، وعمّي نور الدين الغائب منذ ثلاثين سنة وربما كان ميتاً هو أيضاً، وكارول المرأة التي وقفت في منتصف الطريق بينهما. بتفكيري في كارول خطر لي سيناريو مرعب تخيّلت فيه أبي يخطط مع كارول للتخلص من عمّي بواسطة السم ثم دفنه خلسة في إحدى المقابر أو ربّما ألقيا بجسده في البحر. أيقظني حفيف الرسالة الثالثة عندما وقعت من يدي.

٢

شيكاغو أكتوبر ١٩٧٨

أختي مريم،

أكتب لك من شيكاغو للمرة الأخيرة. أشعر بالاختناق في هذه المدينة وأريد الرحيل عنها. وبإعلاني عن رغبتي هذه أشعر بأنني تحرّرت وبأنني شيّدتُ طريقي نحو مدينة أخرى مجهولة حيث لا أعرف أحداً ولا يعرفني أحد، حيث لا جذور لي ولا أغصان لديّ. صحيح أنني سأعبر على جسر من الأخطاء باتجاه طريق مجهول. لكنني أعتقد بأن كل شخص خلق ليمضي باتجاه خاصّ به. أريد أن أرحل وأترك كل شيء ورائي. كتبت رسالة لحبيب قبل رحيلي هذه نسخة منها كي تفهمي أسبابي يا مريم:

"أخي الملعون،

هذه رسالتي الأخيرة لك، لتحلّ عليك لعنتي ما حييت، لتحلّ عليكما لعنتي ما حييتُ! حين قدّمتني إليها في

أول تعارف لنا، قدّمتني بمهابة وقلتَ: هذا هو أخي الصغير الذي يحلم بأن يصبح ممثلاً، شاعر من دون سجائر ومن دون امرأة ملهمة. أيجوز هذا يا كارول؟ يجب أن نهتمّ بهذا الصبي ونحوّله إلى شاعر حقيقيّ! يومها طلبت بيرة خفيفة ومنعشة لي أنا الصبيّ الغرّ وويسكي من دون ثلج لك أنت المعتدّ بذكورتك وطلبت لها "روزي" رقيق اللون مثل لون أحمر شفاهها، رقيقاً مثل ابتسامتها ومثل رهافتها حين رفعت كأس "الروزي" وقالت بفرنسية تثقلها لكنة غريبة: نخبك أيّها الشاعر". يومها ذاب قلبي وعرفت أنني وقعت وانتهى الأمر. انكفأت على وجهي. ولم أرفعه إلا لأراها.

أخي العزيز، قد تتساءل الآن وأنت تقرأ رسالتي هذه لماذا كتبت لك بدلاً من الحديث معك؟ ولماذا تركت هذه الرسالة تحت باب بيتك ولم أسلّمها لك مثلاً؟ لماذا لم أقرع جرس الباب وأدخل إلى بيتك وأجلس لنتحدّث رجلاً لرجل. يا ابن لطيفة ولطيفة ليست هنا لتفصل بيننا. لقد هجرتُ بيتي وحياتي، هجرتُ الشقة التي استأجرتها والحياة التي شكلتها.

البارحة رابطتُ أمام العمارة لمراقبة الشقة. لمحتُ قطاً لم أميّز لونه في العتمة وقد استكان على إفريز النافذة بهدوء، وسرعان ما انتبه لحركتي في الحديقة فانتصبت

أذناه المُدبّبتان في حالة تأهّب والتمعت عيناه بوهج أصفر مخيف وكأنه التقط إشارة من كوكب آخر.
ما الذي كنتُ أفعله هناك؟ لماذا لم أضع المفتاح في ثقب الباب وأدِرْه نصف دورة فينفتح؟ لَمَ لم أدفع الباب وأدخل بمنتهى البساطة إلى بيتي؟ وبدلاً من هذه الحركات البسيطة التي يقوم بها آلاف الرجال في تلك اللحظة في أماكن أخرى من العالم، وقفت هناك في الشارع أفكر وأراقب زوجتي من بعيد.
أحوم كل ليلة خلسة حول بيتي بحثاً عن الحقيقة. البارحة مثلاً وقفت في ساعة متأخرة من الليل. عادة ما تكون كارول نائمة في ذلك الوقت. نظرتُ إلى الطابق الثالث من المبنى، حيث أجّرنا استديو يتكوّن من غرفة واحدة كبيرة وضعنا فيها سريراً وطاولة طعام واستعضنا عن الخزنة برفوف خشبية ثبّتناها على الحيطان وضعنا فيها كتبها عن التاريخ وتأثيره على الفن الحديث وكتبي عن الأفلام والتمثيل، ورشقنا أسطوانات الموسيقى المفضّلة لدينا على بقيّة الحيطان مثل لوحات فنية مزدوجة الاستعمال. حين نرغب في سماع الموسيقى نلتقط أسطوانة ونضعها في جهاز الفونوغراف القابع في الزاوية كتحفة فنّية سعدنا بامتلاكها. نستلقي على الأرض ونستمع للبلوز ونحن ندخن، أنا وحبيبتي. بينما الشبّان والشابّات خارجاً في ليل المدينة يحلمون

تحت سحابة كبيرة متشكّلة من الكوكايين، سحابة اجتاحت البلاد والعباد، نستلقي نحن على الأرضية ونحلم تحت سحابتنا التي تسع الكون، سحابة الحبّ الممطرة بالآمال والوعود. عشنا في عالم خاص بنا شيّدناه من ثقافتين مختلفتين. أنا المتعطش للسينما والحرّية والقادم من شمال أفريقيا المستيقظة من سنوات الاستعمار، وهي المتعطشة لمعرفة البلدان وتواريخها والقادمة من شرق أوروبا الخارجة من أتون الحرب العالمية. لا هي ولا أنا عرفنا أنها المرأة التي ستتحوّل إلى أكبر جرح في روحي. ربّما مع الأيام سأشفى من كل هذا الوجع وستتحوّل امرأتي الأولى إلى ندبة أتناساها مع الوقت. أمس قطع أفكاري ظلّ مرّ أمام نافذة غرفة النوم، لم يكفني الوقت لأتأكد إن كان ظلاً واحداً أم ظلين. هل كان الظلّ الثاني ظلك يا حبيب أم ظل شخص آخر شكله خيالي المحموم. ينهشني الشك مثل فطريات غير مرئيّة تغزوني، أمدّ يدي كي أزيحها عني فلا أستطيع. أتخيّل كارول في تلك الساعة من الليل بين ذراعي عشيقها. أتخيّلها كيف تنسحب بسلاسة لتنتقي أسطوانة وتضعها بحرص في جهاز الموسيقى وحين تلتفت يمسكها عنوة. البارحة وصلني صوت بكاء الطفل فتشتت تفكيري للحظة ونسيت أين كنت وما الذي كنت أفعله تحت تلك

النافذة في تلك الساعة المتأخرة من الليل. بكاء الطفل لم ينقطع، تخيّلتُ كارول تهرع من نومها وتتخبّط في أثاث الغرفة يعوق حركتها ثوب النوم القطني الذي أرسلته لها أمّها بالبريد.

منذ عرفت أمّها بخبر الحمل لم تتوقف عن إرسال الطرود البريدية المحمّلة بالمنسوجات القطنية والصوفية التي حاكتها للطفل المرتقب. اختارت اللونين الأبيض والأصفر كلونين محايدين يناسبان الصبيان والبنات على حدّ سواء. كانت حبيبتي تفرح بتسلّم الطرود التي انهالت مثل سلسلة من العلامات التي ستقودنا إلى الكنز الأكبر. تتابعت الهدايا حتى تسلّمنا الهديّة الكبرى، الفستان القطني الذي ورثته أمّها عن جدّتها. حين شاهدتُ بهجة حبيبتي والدموع في عينيها شفافة مثل قطر الندى، تخيّلت كيف فتحت أمّها صندوقها الخشبي الكبير حيث تحتفظ بأعز ذكرياتها، فستان زواجها والشراشف الصوفية التي لفّت بها أطفالها عند ولادتهم والأسنان اللبنية لأبنائها تحتفظ بكل سنّ في كيس قطني طرّزت عليه اسم كل طفل. تخيّلتها تفتح الصندوق بينما تداعب الشمس وجهها بشعاع دافئ وتستنشق رائحة وقطع الصابون المنزلي العطرة الذي تضعه لمقاومة العث والرطوبة. تخيّلتها تلتقط بحنوّ الفستان الأبيض المشرّب بالبنفسجي

الفاتح المُطرّز بورود صفراء ناعمة عند صدره وأطرافه، تتحسَّسه بحب وتستنشق رائحته وكأنها ستجد رائحة أمّها. ومثلها فعلت حبيبتي كارول، استنشقت الثوب القطني. تخيّلتُ كارول مرتدية ذلك الثوب تهرع للصبي الباكي، تسرع نحوه وهي تفكّ أزرار الفستان الأمامية لتُلقمه صدرها، فشعرتُ بغيرتي مضاعفة من الصغير، مرّة لأنه سرق حبيبتي منّي ومرّة لأنه فجّر مطرقة الشك في رأسي. تراه ابني حقاً أم ابنك أيّها الملعون؟

نور الدين

لستُ مؤهّلة للفصل في هذه القصة العاطفية أنا التي تحمل تاريخاً مُثقلاً بقصص الحب الفاشلة. يفسّر معالجي النفسي فشلي العاطفي بعجزي عن الثقة بالرجال، عداه. قبل أن تربطني علاقة عاطفية بطبيبي، حاولت كثيراً لكنني كنت أفعل كل ما يمكنني لتخريب أيّ علاقة أدخل بها وأنفذ بجلدي. كان من المرعب بالنسبة إليّ أن أتعلق برجل ويهجرني، لذلك سعيت باستماتة لأن أكون دائماً أول من تقطع العلاقة. يفسّر هذا طبيبي النفسي الدكتور عادل بسباس، "كل رجل عرفته خفت أن يهجرك ويتركك مثلما فعل والدك. ومعرفتك بأنني سأكون موجوداً دائماً هنا خلف مكتبي بانتظارك، هي ما يجعلك تشعرين بالأمان ولا تقطعين العلاقة".

لكن كلينا يعرف أن هذا غير صحيح، وأنني وقعت في حبّه ومنحته ثقتي المطلقة وها أنا عالقة منذ سنوات في هذه "العلاقة غير

الصحّية" كما يصفها. نلتقي في عيادته، عشّ غرامياتنا المسروقة، حيث نمارس الحب بلهفة وتوتر على نفس الأريكة الجلدية السوداء التي يجلس عليها زوّار آخرون يحتاجون إلى خدماته. أعرف أن علاقتنا لا تجوز وأنها يجب أن تكون "مهنية" بحتة فهو طبيبي وأنا مريضته. كما أعرف بعد كل مرّة يقبّلني فيها مودّعاً، أنه يخرج خاتماً من جارور مكتبه ويعيده إلى موضعه في خنصر يده اليُسرى. أعرف منذ أول يوم جلست فيها أمامه، وكشفت له عن تاريخي النفسيّ أنه يمتلك حياة أخرى. أعرف أنه آخر النهار يعود إلى بيت في الضواحي تنتظره فيه زوجة مبتسمة وطفلتان صغيرتان تحيطانِ بعنقه عندما يفتح الباب ويدخل. كنتُ أعرف كل هذا ومع ذلك ما زلت أصدّق أن حبّنا حقيقي.

نمت محتضنة الرسائل وعاودني نفس الحلم القديم. رأيتُ نفسي مرة أخرى أمشي وحدي في الطريق. وككل مرة شعرتُ بالسعادة لأنني أخيراً سأدخل مقبرة الأجانب. وككل مرّة التفتُ ورائي كي أتأكد من أن لا أحد يلاحقني. مشيتُ بثقة نحو البوابة الحديدية وفتحتها بسهولة. أخيراً سأعبر هذا الباب، فكرت بسعادة. بحثت ببصري عن الحارس الذي اعتاد أن يرابط أمام البوابة طيلة سنوات وعاش في بيت صغير داخل المقبرة يحرسها ويطارد متسللي الليل بهراوة شبيهة بمضرب البيسبول. لم يكن في المكان أحد سواي. رأيتُ الصلبان الصغيرة تعلو شواهد القبور وقرأت الأسماء والتواريخ بفضل أعمدة الإنارة في الخارج. تنقلت بين القبور من دون أن أدري ما الذي كنتُ أبحث عنه بالضبط إلى أن وقفتُ أمام

قبر صغير ومنعزل. خفق قلبي بعنف حين قرأت على شاهدته اسمي وتاريخ موتي. استيقظتُ مذعورة. لم أتذكّر أين كنت إلى أن رأيتُ الكاناويطة المفتوحة بجانبي ووصلني من الخارج صوت الرعد والمطر. لا أعرف لماذا حلمت بذلك الحلم من جديد. ربما كنت أخشى موتي أو ربما كان يجب عليّ زيارة مقبرة الأجانب.

كانت مقبرة الأجانب مكاناً محرّماً علينا نحن الأطفال، مكاناً نحلم بزيارته ولا يجرؤ أحد منّا على التسلل إليه ما عدا الفتيان الذين يريدون إثبات انتمائهم إلى عالم الرجال فيتسللون خلسة إلى المقبرة في ليالي الصيف المضيئة. كان الكبار يخفضون أصواتهم عندما نمرّ أمامها ونرشقها نحن الصغار بنظرات الفضول والخوف متسائلين ما الذي تخفيه خلف أسوارها. نرى أشجار الصنوبر العالية ونلمح العشب الأخضر يفصل بين قبورها وأصص زهور صغيرة ونتساءل لماذا لا نزور مقابرها مثلما نزور مقابرنا في الأعياد و"المواسم" و"العواشر".

٣

منذ سنوات حدثتني عمتي عن الحياة العاطفية لأبي: "أحب أبوك النساء وأحببنه. لكن ثلاث نساء علّمن حياته، الكولومبية مارتا وأمّك منيرة وصوفيا طاطا. أنجب من كل واحدة منهن بنتاً. في السنوات الأولى لهجرته تعرّف إلى مارتا وأظن أنه تزوّجها أو عاشا فترة قصيرة معاً، أنجبا بنتاً سنة ١٩٧٥ سمّياها مريم على اسمي. لا أعرف لماذا افترق حبيب عن مارتا لكن جدّتك لطيفة ذُعرت حين عرفت بعلاقته برومية وظلت تلاحقه إلى أن تزوّج أمك منيرة ووُلدتِ أنتِ سنة ١٩٨٠. لم يتفق والداك ولم يصمد زواجهما سوى أشهر قليلة. وتزوّج بعدها بسنوات بصوفيا، المرأة الوحيدة التي أعتقد أنه أحبّها بصدق. تهامس الناس عندما تزوّجها بأنها سحرته وبأنه كان مثل الخاتم في إصبعها تسيّره كما تشاء. وصدّق هو حكاية السحر فجرّب كل شيء ليفلت من سطوتها. حتى إنه بعد سنوات من زواجهما ونزولاً عند نصيحة أحد العرّافين سافر إلى قرية شيّدت عند سفح جبل "حاحا" بالمغرب بحثاً عن "عزّام"[1]

١ عرّاف باللّهجة التونسية.

قيل إنه الوحيد القادر على فك سحرها. هجرها وطلقها ثم عاد وتزوّجها في نفس السنة. وفي النهاية استسلم وتوقف عن مقاومة سحرها أو حبّها أو سلطتها عليه أو ما شئت من الأسماء وقال لي وقتها "يا مريم لا فائدة. علاقتي بصوفيا تشبه المرض المزمن لا يمكنني سوى التعايش معه."

قاطعتُ يومها عمتي وأنا أشعر بالمرارة وبالغضب يخنقانني: ظلّ أبي يجيء ويذهب بين أمريكا وتونس كل سنة ويلاحق خزعبلات السحرة فيسافر الى جبال مجهولة في المغرب ونسيني تماماً. ماذا عنّي؟ لا أذكر أنني اقترفتُ ذنباً ليلقي بي وراءه ويواصل حياته ويتزوج وينجب بنات أخريات يحظين بحبّه واهتمامه.

طفلةً كنتُ أمرّ خلسة أمام بيت جدتي لطيفة وأرى سيّارته المرسيدس السوداء مركونة أمام البيت فأعرف أنه عاد. أقترب من سيارته وأمرّر يدي عليها بلطف ثم أسحبها بسرعة خشية أن تترك أصابعي أثراً. في الصباح ألعب مع أيّ أطفال أجدهم يلعبون في شارع بيته. وألمح زوجته صوفيا بقصّة شعرها الغلامية تتحرّك بخفة في أرجاء البيت. أنتظر أبي حتى يستيقظ كي أراه ولو من بعيد جالساً يشرب قهوته في الشرفة. أنظر إلى وجهه الأسمر الخالي من الهموم وأتمنّى أن أكلمه. لم أكن أشبهه في شيء، ورثت كل ملامح أمي، ورثت بياضها، وجهها المُدوّر الصغير، عينيها اللوزيتين، أنفها الدقيق وشفتيها الرقيقتين. كأنها نظرت إلى نفسها في المرآة واشتهت أن تنجب نسخة منها فأنجبتني. حين حملت صوفيا بدلال نظرتُ إلى بطنها المُكوّر وتساءلت ترى كيف ستكون ملامح طفلهما.

لطالما رأيتهما في الأماسي المنعشة للصيف جالسين في شرفة البيت يضحكان. كنت أرى صوفيا تقف وراءه وتنحني لتعانقه، تضغط على رأسه بنهديها وتطوق عنقه بذراعيها، فأدعك صورته في يدي المتعرّقة ثم أهرب. أجري من دون توقف ويتموّج الطريق أمامي بفعل الدموع وحرارة الصيف. طريق دموعي لا ينتهي ولا يتوقف إلى أن أدخل بيت أمي. هناك أبتلع دموعي التي تتحوّل إلى لآلئ تلتصق بجدران قلبي. أجمع اللآلئ على امتداد السنوات. كلما كثرت لآلئي أصبحت غنيّة عن حبّه وعن حنانه.

تواصل عمتي الحديث بعد أن تتنهّد: "لم يكن أبوك يستمع لكلام من يخاف عليه. كنت أتمنى لو أن والديك لم ينفصلا. غضبت جدتك لطيفة من أبيك وزواجه بصوفيا لم يكن برضاها، والأمسيات الصيفية التي تظنّين أنها كانت ممتعة، كانت تحاك فيها مكائد لا تنتهي بين صوفيا وعمّاتك. كن يمقتنها وكانت هي داهية."

أبتسم وأنا أتخيّل حروباً نسائيّة دارت في هذا البيت، وأسألها وأنا أكاد أضحك تقريباً متخيّلة عمّاتي يسحبن صوفيا من شعرها: حقاً؟ لا أستطيع حتى تخيّل هذا، وأيّ فريق كان ينتصر؟

"طبعاً صوفيا، فقد كانت باردة الأعصاب ولئيمة. حين حملت بدلال صادفت أشهر حملها الأولى إجازتهما في تونس وقرّرا أن لا تسافر إلى أن يستقرّ الجنين في رحمها. عاد هو إلى شيكاغو وظلت هي في البيت مع جدّيك وعمّاتك. أذكر أن صوفيا ادّعت أن عمّاتك وضعن لها قطة في خزانة ملابسها وحين فتحتها قفزت القطة عليها وأرعبتها حتى كادت تسقط الجنين. كانت تفتعل شجاراً في اليوم

الذي تتوقع منه اتصالاً هاتفياً من حبيب. تبكي على الهاتف مشتكية منهن ثم تغطي السماعة بيدها وتستفز عمّاتك الحمقاوات وترفع يدها عن السماعة حين يبدأن بشتمها وهكذا كان يصدّقها. لم ينتبهن إلا لاحقاً إلى حيلها.

"يعني أحب أبي صوفيا حقاً... ألم يعرف نساءً غيرها؟"

"لا أظن، كان هذا أيّام الشباب أول ما هاجر إلى أمريكا. عمّك نور الدين حدّثني خلال إحدى زياراته عن أخيه حبيب وهو يضحك: "لا تغترّي برصانة حبيب، لأخيكِ قلب أخضر. أتذكرين خاتم الذهب 'عين الهرّة' الذي منحته له أمّك لوقت الحاجة؟ سهّل ذاك الخاتم حياته في أمريكا. كلما أعجبته امرأة أهدى لها الخاتم بعد ثالث أو رابع موعد مؤلفاً قصصاً عجيبة حوله. مرة يقول إن فص الخاتم البنيّ من الياقوت اليمنيّ، أهداه جدّنا الأول لجدّتي حين طلب يدها للزواج في أحد حقول القمح بماطر. وتوارثته الأجيال حتى وصل إليه هو حبيب الحفيد الموعود بالخاتم كي يقدّمه لامرأته. يسكت قليلاً، يتنحنح وينظف حنجرته ثم يعلن: وها قد وجدتك يا امرأتي الموعودة وحان الوقت لأهدي لكِ خاتمنا العائليّ. وفي مرات أخرى يقول إن الخاتم تميمته التي تحميه من الشرور وكلما انتزعه من جيب سترته، أصابه مكروه. ومرّة يقول إنه وجد الخاتم في رحلة تنقيب عن كنوز قرطاج المطمورة تحت طبقات الأرض. لكنه كان يتلذذ أكثر بوصف مشهد الخطبة المزعومة. يسهب في وصف الجدة في موسم حصاد القمح. يصف انحناءها بصبر بينما تلتقط سنابل القمح، يصف منديلها

الكتّان المرسومة عليه ورود ملونة، يصف فستانها القطني الأخضر المشدود لخصرها بحزام صوفيّ خشن والمرفوع قليلاً عن الأرض كي لا تتعثر كاشفاً عن بياض ساقيها. يصف خجلها من الشاب الواقف أمامها باعتداد بينما العرق يتصبّب من مسامّ وجهه، يصف كيف أمسك الجد برقة بخاتم "عين الهرّة" بيد وبالأخرى يقبض على منجله. ثم يتجاوز حبيب تفاصيل الحكاية وينهيها بوصف استعراضي لمدينة ماطر، المدينة الممطرة، يستعرض الأصول اللاتينية لكلمة ماطر ويصف أمطارها التي لا تتوقف على مدار السنة. تسأله الواحدة منهن بفضول: "ماطر؟ تونس؟ أين تقع هذه البلاد؟". "ألا تعرفين تونس، بوابة أفريقيا؟" يصرخ حبيب بنشوة المنتصر ثم بصوت الصياد الذي يعلم أن طريدته لن تفلت من قبضته بعد الجملة الثانية: ألا تعرفين تونس الفينيقية؟ تونس الأفريقية؟ تونس 'مطمورة' روما وسلة غلالها؟"

يضيف عمّك نور الدين ساخراً: أخوك اختار السكن في عمارة للصدفة أو لذكاء اختياره أغلبية سكانها من النساء. كل امرأة عرفها أو أحبّها في تلك العمارة الصغيرة التي سكن فيها، أهداها خاتم "عين الهرّة". يهدي الواحدة منهن الخاتم وقصته المتخيلة ونظرة عينيه العسلية المضيئة في وجهه الأسمر ثم ينتقل للعيش معها لأشهر ترتدي فيها الفتاة الخاتم الحامل لعرق الجدة ولرائحة القمح التونسي الافريقي كعربون حب. وعندما تنتهي العلاقة لسبب أو لآخر يستعيد حبيب خاتمه السحري ويعود إلى شقته أو يبحث عن شقة أخرى في نفس العمارة بمنتهى البساطة."

تسكت عمّتي مريم لوهلة تستعيد فيها أنفاسها ثم تضيف بحزن: لكن تونس يا جيهان كانت وقتها قد صحت من سبات الاستعمار، جائعة وبردانة ومرتعشة من الفقر والجهل. وكان حبيب يبني مجداً مزعوماً بكلماته وبقصة الخاتم الذي تنقّل من يد امرأة إلى أخرى كما نتقل هو من سرير إلى آخر ومن طابق إلى آخر.

٤

في الماضي شدّتني حكاياتُ عمّتي مريم نحو بيتها مثل مغناطيس فواظبتُ على زيارتها كل أحد. وحكاية البئر من أكثر الحكايات تأثيراً بي وكثيراً ما طلبتُ منها أن تحكيها لي من جديد. حدثتني عمتي مريم عن ليلة البئر فقالت: "في ليلة الصيف تلك رآني أبوك حبيب أخرج في ظلال الليل والقمر من فُوّهة البئر المحفور في حديقة البيت فتجمّد من الصدمة قبل أن يسرع ويساعدني. ليلتها تشبّثتُ بالتجويفات الداخلية لجدران البئر وتسلقت صعوداً للأعلى. كنت أدعو الله أن لا أسقط من جديد بينما ملابسي المُثقلة بالماء تسحبني للأسفل. وصلت إلى الحافة حيث كان من المفترض أن يكون اللوح الخشبي وتشبّثت بأول عشبة تحسّستها يدي من دون أن أشدّ عليها بقوة ودفعت بجسدي للأعلى، وعندما تمكنت أخيراً من الخروج، جلست على حافة البئر أبكي بصمت وأنظر إلى خيوط الماء المنسابة من جسدي. وقف حبيب ينظر إليّ بانبهار. كما سيعترف لي لاحقاً: كنت بطلة خارقة يا مريم، أنت بطلتي. من هي البنت التي تتسلق بئراً وحدها من دون أن

تصرخ مستنجدة؟ لقد انتصبتِ ليلتها واقفة تحت ضوء القمر مثل كائن خرافي. وقفت تحت ضوء القمر مثل أبطال الخرافات التي تحكي لنا عنهم جدّتي "شاذليّة". أضحك مستمتعة وأقول لعمتي: كنت صغيرة وكان لديك جدّة؟ لطالما تخيّلت الكبار يولدون كباراً.

تضحك عمتي وتواصل الحديث: كانت عندي جدة رائعة اسمها "شاذليّة"، نتحلق حولها نحن الصغار فتحكي لنا حكايات عن الغول وعن كائنات خرافية تنام في الزوايا المظلمة وتساعد الصغار والمساكين وحكايات عن الجميلات الخجولات ينتظرن الفرسان بصبر وهن يحكن الملابس. قبل أن تصيب البلاد حُمّى الأفلام، كانت الجدة هي السينما، تتشكّل الصور من كلماتها وتتحرك على شاشات خيالنا. صوتها كان جسرنا إلى عالم الخيال. في ليالي الصيف، حين نزورها، تجلس جدتي "شاذليّة" في باحة المنزل تمشط شعرها بمشط عاجيّ أبيض انكسرت نصف أسنانه. تحكي جدتي بينما يداها مشغولتان بشعرها الأبيض الطويل، تمشطه ثم تشدّه بإحكام بين أصابع قدميها لتضفره في جديلة طويلة تعود وتلفها حول رأسها لفات دائريّة. كمقابل لحكاياتها العجيبة، كانت جدتي تأمرنا بأن نجمع لها كل ظهيرة الياسمين قبل تفتحه. ترشق الياسمين في ضفيرتها فيتضوّع من شعرها في المساء شذاً رقيقاً ينتشر من حولها غيمة عطرة.

في الليلة التي شاهدني فيها حبيب أخرج من البئر اعتبرني بطلته وبوصلته التي سيعتمد عليها في حياته. كان يقول لي: "ليلتها مرّ أمام

عينيّ كل ما تفعلينه لأجلنا. تفانيك في القيام بشؤون العائلة، إتقانك لكل شيء تقومين به، عزيمتك التي لا تُقهر رغم صغر سنك." كل مرة عاد فيها حبيب مهزوماً كان يأتي إلى بيتي: أفهمه من دون كلام. أجهز شاياً أحمر قليل السكر كما يحبّه وأغلق باب الصالون علينا وأستمع إليه. كنت مستودع أسراره ولم يخفِ عني حبيب شيئاً ما عدا مصير نور الدين.

عندما خسر جدّك حمّادي عمله الأول في "البطوار"[1] عرفنا ليالي الجوع الطويلة حيث لم نكن نستطيع النوم. انهارت أمي لطيفة وجلست لساعات متجمّدة في مكانها على كرسي أمام الحائط لا تعرف ماذا تصنع، عرفت فقط بماذا تشغل يديها. كانت تجلس لساعات تحوك الصوف من دون أن تشكله ثياباً. تحوك قطعة صوف لا نهاية ولا شكل لها أول النهار ثم تعود وتفكّها أول الليل لتعيد حياكتها في اليوم التالي.

حين غرس الفقر أنيابه في حياتنا صمدت وتدبّرت شؤون العائلة وشؤون الفقر معها. ابتكرت حيلاً كي لا نموت من الجوع، وعشت كل يوم بيومه من دون التفكير في الغد. كنت أعدّ وجبات من بقايا الخضار أشتريها بعد أن أنقيها بعناية من الصناديق شبه الفارغة آخر النهار في السوق. وأساوم الباعة الذين كثيراً ما يشفقون عليّ ويبيعونني إيّاها بربع الثمن وأحياناً يقدّمونها مجّاناً. أنتظر دوري في الطابور عندما يوزّع مكتب الشؤون الاجتماعية الحليب المجفف وأكياس الطحين والسكر على الناس. أعدّ القهوة في إناء حديدي، ألقي بقبضة قهوة في الماء وبعد

١ le battoir مكان مخصّص لذبح الحيوانات تشرف عليه الدولة.

أن تغلي أصفيها من حبّات البن وأضيف الحليب المجفف مع القليل من السكر. السكر رفاهية نقسطها بعناية. أوزع حصص القهوة بالتساوي على العائلة رشفة رشفة. أجل، كنّا فقراء مثل كل الناس بعد الاستقلال، ربما كنّا أقل فقراً من بعض الناس أو أكثر منهم، لا أعرف.

أستمع لعمتي تحدثني كيف تحايلت على الفقر، فأخجل أنا التي تدفعها أمها للمطالبة بطلب زيادة في النفقة من أبيها. رتقت وصغّرت عمتي ملابس الإخوة والأخوات الكبار ووزعتها على الأصغر. ودفعت إخوتها للذهاب للمدرسة، تضع دفاترهم القليلة في أكياس بلاستيكية وتسألهم حين يعودون ما الذي تعلموه وتجلس تذاكر معهم. بينما توقفت هي عن الذهاب للمعهد وبدلاً من ذلك تعلمت قيادة الدرّاجات النارية وبحثت عن عمل في أحد المصانع التي بدأت تنتشر في شمال البلاد.

أسألها عن دراسة أبي فتضحك: "أبوك كان ذكيّاً وأحب الدراسة منذ البداية. لم يحتج لمن يدفعه للذهاب للمدرسة. أضحك لأنني دائماً ما أتذكر اليوم الذي تُوّج فيه الأول على صفه وعاد فرحاً بالدفتر المدرسي للبيت. يومها حمل الدفتر بفخر لجدك حمادي الذي كان جالساً يدخن بهدوء مستمعاً إلى مقطوعة "مالوف"[١] في الراديو. قرأ رقم واحد فنهض وألقى بالدفتر على الأرض وصرخ في وجه الصبيّ المذهول: "ترتيبك ١ في فصل من ٣٥ تلميذاً؟ ألم تجد رقماً أفضل من هذا الرقم؟ رقماً أكبر مثل ٣٠ أو حتى ٢٠؟"

١ موسيقى من الموروث الأندلسي منتشرة في المغرب العربي.

في البداية صُدم حبيب من ردّة فعل أبي لكني تحدثت إليه يومها وفسّرتُ له أن أبانا الذي لم يدخل قط إلى مدرسة، يفكر بطريقة أكثر بساطة من تفكيرنا، وأنه يظن حقاً أن الارقام الكبيرة هي الأفضل مثلما هي الحال في أمور البيع والشراء. كانت المدرسة عالماً سحرياً بواسطته استطاع حبيب أن يفك شيفرة كتب الميكانيكا التي وجدها ملقاة أمام بيت المستوطنين الفرنسيين. فهم درس أبيه ولم يعد يحمل دفتر نتائجه ويريها إلا لي. كنت أشعر بالفخر حين أقرأ نتائجه وأنتظره بلهفة مثل لهفة أم حقيقيّة تنتظر عودة ابنها أمام الباب، رغم أنني في الحقيقة لا أكبره سوى بثلاث سنوات. عند نهاية كل ثلاثيّ دراسي كنت أنتظره أمام البيت وأنا أفرك بتوتر يديّ المتعرقتين في ثوبي المنزلي. كانت يداي تنزان ماءً طيلة الوقت، لم أكن أعرف وقتها أنني أعاني مثل كل أبناء جيلي من فقر الدم جرّاء سوء تغذيتنا. كنت أشاهد حبيب يجري مقترباً من البيت فاتحاً ذراعيه وكأنه طائرة صغيرة على وشك الإقلاع نحو السماء. يلقي بنفسه بين ذراعيّ، صارخاً "أنا الأول يا مريم، الأول" فأجيبه بصوت يخنقه البكاء وأنا أضمّه: كم أنا فخورة بك!

وبسبب ذكاء أبي سقطت عمّتي مريم في البئر ذلك المساء. كان يُدرّس أطفال الجيران دروساً خصوصية مقابل ملاليم، وفي ذلك الزمن زمن الجوع والفقر كانت المئة مليم بالنسبة للصغار ثروة وكان الدينار كنزاً. كان حبيب يستعمل اللوح الخشبي الذي يوضع عادة كعتبة على حافة البئر كي لا ينزلق أحد، كلوح يكتب عليه بالطباشير حروف الهجاء والكلمات والأرقام. في ذلك اليوم أخذ اللوح ونسي

أن يعيده إلى حافة البئر مثل العادة. كانت عمتي مريم يومها وللحظ وحدها في البيت. لا تذكر أين ذهب الجميع، ربما اصطحبت أمّها أخواتها وذهبن إلى عرس أحد الجيران. لكنها تذكر أنها كانت وحدها واحتاجت إلى الماء. مستعجلة ألقت بالدلو واندفعت وراءه في الماء العكر. تروي لي عمتي مريم حكاية البئر وتحمد الله كثيراً أنها لم تتذكر تلك الليلة جحور الأفاعي المندسة في ثقوب الجدران الداخلية للبئر. كانت تضيف وهي تتنهّد "لم أفكّر يومها. اندفعت للأعلى بحرارة الروح متشبثة بالتجويفات والأعشاب الداخلية للبئر ونسيت الثعابين الصغيرة. لو تذكرتها لخانتني شجاعتي". تقول بينما تقلب الملاوي[1] على الطبق أمامها. عمتي تدللني كثيراً. تعدّ لي مساء الأحد الخبز "الملاوي" نطليه بالنوتيلا ونشرب معه قهوة بالحليب في شرفة بيتها المطلة على زقاق ضيّق يتسابق فيه الأطفال بدرّاجاتهم الهوائية.

لعمتي مريم تاريخ لا يُنسى. ذات صباح بينما تحلق الجميع يتناولون إفطاراً من خبز بائت يغمسونه في قهوة الحليب المجفف، أعلنت عمتي بصوت من لا تنتظر رداً أنها ابتداءً من ذلك اليوم لن تذهب للدراسة. "سأبحث عن عمل." قالت ببساطة ووضوح. في ذلك الوقت كانت أمّها لطيفة من دون حيلة أو صنعة وخسر أبوها حمّادي الياس عمله. كان جدّي قصّاباً يعمل في "البطوار" قبل أن يغامر بعدها بسنوات ويؤجّر محلاً ويحوّله إلى مجزرة لحوم بمساعدة الأموال التي سيرسلها أبي حبيب من أمريكا. هكذا قررت

[1] خبز بيتي شبيه بخبز الصاج.

مريم في ذلك الصباح إعالة عائلتها من دون أن يطلب أحد منها ذلك. التحقت بمصنع خياطة افتتح في المدينة. كان صاحب المصنع رجل أعمال بلجيكياً خطرت له الفكرة اللامعة بالتخفيف من كلفة اليد العاملة وزيادة الإنتاج، فانتقل بمصنعه إلى بلد قريب وفقير يتعطش سكانه للعمل مهما كان الأجر زهيداً وساعات العمل طويلة. وهكذا أسّس البلجيكيّ أول مصنع له ضمن سلسلة مصانعه المنتشرة في العالم.

٥

لا أعرف لماذا قضيتُ سنوات من عمري أبحث عن أيّ جسر يقودني إلى أبي، إلى الرجل الذي طلّق أمي قبل ولادتي. طلّقها لأن "عزّاماً" قال له إن امرأته نحس عليه. لم أتفهّم يوماً طلبه الحقير، قلبت الفكرة في ذهني مراراً وتكراراً. بحثت له عن أعذار ولم أجد. كلما فكرتُ بأنه استطاع أن يطلب من أمّي ذلك الطلب الغريب والمُرعب، كرهته. كيف استطاع أبي تصديق أن زوجته كانت السبب في المصائب التي عرفها. كيف صدّق الرجل المُتعلم الذي درس وعمل في فرنسا وأمريكا، نصيحة مشعوذ جاهل. "للتخلص من النحس الذي يلازمك عليك أن تجعل زوجتك تنام ليلة في المقبرة! يجب أن تنام في الفراغ الفاصل بين قبرين حديثين ويجب أن تقضي الليلة وحدها دون ماء أو طعام".

لا أفهم كيف تجرأ أبي وعرض هذا الأمر على أمّي. هل توقع موافقتها مثلاً أو توقع منها أن تضحك وتعتبر المسألة مزحة سخيفة. لم أجد له أيّ عذر. تحدّثني عمّتي مريم عن أبي بمرارة حين أسألها عن سبب طلاقه لأمي: أبوك يا طفلتي لا يصغي لنصيحة من يخاف

عليه، أبوك يصغي لكلام رأسه فقط.

تعطيني عمتي مريم من حين لآخر ظرفاً وتقول خذي يا ابنتي هذا المبلغ أرسله لك أبوك. لكني أعرف أن هذا غير صحيح وأعرف أنه مالها. كل مرة أتردّد وكأنها أول مرّة، ثم أمسك الظرف بأطراف أصابعي وأدسّه بسرعة في حقيبتي. تنتبه عمتي لتردّدي فتكرّر نفس الجملة بتحسّر: أبوك يا طفلتي لا يسمع كلام رأسه أو كلام من يخاف عليه، أبوك يسمع كلام الآخرين." تخنقني غصّة فلا أقول الكلمات التي تخنقني: "أنا حزينة يا عمتي ويتيمة من الحنان. أريد أن أسأل أبي أيّ ذنب اقترفت كي يتركني، لا يسأل عنّي كل هذا السنين. يذهب ويعود ويقضي الصيف هنا في نفس المدينة ولا يسأل عنّي ولو من باب الخطأ." تخنقني الغصّة فأهرب من عمّتي إلى "أمّي رِبْحْ" جدّتي لأمي. لكن جدّتي تكره أبي كرهاً أعمى حتى إنها رفعت عليه قضية وجرّته للمحاكم حين توقف ذات سنة عن إرسال المال لي. عمتي مريم وقتها حاولت احتواء العاصفة، أخبرت "أمي ربح" بأن أبي خسر عمله في أمريكا وظروفه سيئة لكن جدتي لم تستمع إليها. "أمي رِبْحْ" لا تفهم اشتياقي الجارف إلى أبي ولا تفهم احتياجي إليه. لا تفهم عطشي لحبه ينمو في روحي شجرة صبّار ترتد أشواكها نحوي وتجرحني من الداخل فأنزف بصمت.

في الماضي بحثتُ عن أيّ جسر يقودني إلى حياة أبي، وساعدتني عمتي مريم عندما أعطتني رسائل أختي غير الشقيقة الأمريكية لأقرأها لها. قرأت وراء كلمات ماريا المكتوبة بحروف كبيرة لهفة للتعرّف إلى عائلة الأب المجهولة. لم تكن عمتي تعرف الإنكليزية ولذلك

طلبت منّي أن أقرأ لها الرسائل التي وصلتها تباعاً بمعدل رسالة كل شهر. بعدها طلبت مني كتابة رد لطيف على رسائل ماريا "اكتبي لها بضعة أسطر ولو بإنكليزية ركيكة." قالت دون أن تنظر في عينيّ. لا أعرف إن كان طلبها بريئاً أم أرادت بدورها معرفة الحياة التي يعيشها أبي في الجهة الأخرى من العالم. ربما أرادت أيضاً التعرّف إلى ماريا الابنة الأمريكية التي حدّثها أبي عنها كثيراً. كل ما أعرفه اليوم أنني ممتنة لتلك الفترة من المراسلات، فبفضل تلك الرسائل طوّرت إنكليزيتي وبتّ أتابع دروسها في المعهد باهتمام مضاعف.

بعد أن قرأت رسائل ماريا، دخلت إلى الفايسبوك وكتبتُ في خانة البحث "مريم إلياس" لكنني لم أتحصّل على نتيجة. كتبت اسمها بأكثر من تهجئة إنكليزية دون جدوى. ثم أخرجت إحدى رسائلها وانتبهت إلى أنها وقعتها باسم "ماريا روبرسون"، فكتبت نفس الاسم بنفس التهجئة. بنقرة خفيفة تحوّل الاسم خلال ثوانٍ إلى صفحتها. تصفحتُ منشوراتها العامّة القليلة. نقرتُ على صورة ماريا ثم كبّرتُها. كانت تشبه أبي، أبانا. شعرتُ بالغيرة وضايقني هذا الشعور. بدت في الصور قصيرة مكتنزة الجسم يحيط بوجهها الأسمر المُدوّر شعر مجعّد بالكاد يلامس كتفيها. كانت سمراء بنفس درجة سمرة أبي وتراءت على ذقنها نقطة سوداء كبيرة، شبيهة بالخال الموجود على ذقنه. تصفحتُ صور ماريا آملة أن أجد بينها صورة لأبي. وجدت صورة وحيدة فيها وجوه كثيرة ومبتسمة، كان من الواضح أنها التُقطت في حفل زفاف. كتبت ماريا تعليقاً توضيحيّاً في الأسفل "مع والدي الرائع". بلهفة نقرت على الصورة لتكبير وجه

الرجل الخمسينيّ الذي أحاط كتفيها بذراعه. أصبت بالخيبة. هذا الرجل أمريكي أباً عن جدّ، ربما كان زوج أمّها. فماريا مثلي لديها زوج أم. كنت أظن أن ماريا عاشت بعضاً من طفولتها مع أبي ولم تُلخص علاقتهما في بضعة لقاءات ضبابية ودُمية تصطحبها معها من بيت إلى آخر.

يجب أن أضيف ماريا إلى قائمة أصدقائي كي أطلع أكثر على صفحتها. فكرت أنها قد ترفض قبول إضافتي لأنني أحمل نفس لقبه العائليّ وستعرف أنني قريبته بشكل أو بآخر. أرسلت لها طلب إضافة باسمي الحقيقي وتركت لها حرّية الرفض أو القبول. قبل سنوات من موت أبي، قبلت أختي طلب صداقتي على الفايسبوك. في أول محادثة كتابية بيننا كتبت لها مرحباً مريم فطلبت منّي أن أناديها ماريا. تطلّب منّا التطرّق إلى موضوع أبي شهراً من المحادثات الكتابية المتقطعة، كنّا نلفّ بحذر حول الموضوع. ربما كانت ماريا أكثر انفتاحاً مني لأنها طلبت أن نتحدّث مباشرة بالسكايب. في البداية كانت المكالمة متعثرة بيننا بسبب حاجز اللغة ثم بدأنا بالتحدث بالفرنسية فتدفّق الحديث بيننا مثل نهر من الكلمات. لم أعرف كيف مضى الوقت وتشعّب بيننا الكلام بينما شاشة فقط تفصل بين وجهينا وعالمينا. في السابق كانت كل واحدة منّا تتخبّط وحدها لتفهم. رحلة بحثنا كانت شبيهة بدخول كل واحدة منا إلى نفس المتاهة، كل واحدة من طرف وتسمع صوت الأخرى ولا تصل إليها. وحين فتحنا باب الحديث دلفنا معاً إلى متاهة الحكاية. لم نكن نعرف ما الذي كنّا نبحث عنه بالضبط. أردنا فقط أن نفهم حبيب الياس.

حدّثيني عنهما، أقول لماريا، كيف التقت والدتك بأبي، كيف بدأت قصّتهما؟ فتبتسم ماريا ثم تقول: "لم تكن أمّي تهتم كثيراً بقصص الحب والغرام ومواعدة الرجال. وصلت إلى أمريكا مُعدمة تماماً، بدأت عاملة في مصنع للملابس الداخلية وانتهى الأمر بها بأن امتلكته. صحيح أن أمي كولومبية لكنها لم تكن ترتدي التنانير المُلوّنة والفساتين العارية الأكتاف مع وردة حمراء مرشوقة في شعرها مثلما يصوّرون اللاتينيات في الأفلام. أمّي امرأة بملامح عاديّة لا تحب لفت الانتباه إليها كثيراً، وفي شبابها كانت تحب ارتداء بنطايل واسعة وقمصان قطنية مع أحذية مسطحة. هاجرت قبل "ثورة الكوكايين" التي اجتاحت أمريكا وعملت لسنوات مع المهرّبين الأوائل. كانت تهرّب الكوكايين في أكياس صغيرة تحشو بها البطانة الداخلية لحمّالات صدرها، وتوقفت عن العمل في التهريب بعد أن جمعت المبلغ اللازم الذي مكّنها من شراء مصنع "أفروديت"، المصنع الذي كانت تعمل به. أطلقت مجموعة من التصاميم الجريئة بيع منها آلاف القطع في أقل من سنة. تصاميمها مثلت ثورة في عالم الملابس النسائية في ذلك الوقت، صمّمت ملابس داخلية من القطن المصري بألوان برّاقة للمراهقات، ومزجت الساتان والدانتيلا في تصاميم أكثر حسيّة للنساء الأكبر سناً. صعد نجم أمي بسرعة وانتقلنا من الشقة الشبيهة بزنزانة التي كنّا نقطن بها في أحد الأحياء الشعبية إلى بيت حقيقي في إحدى الضواحي الراقية بشيكاغو.

تعرّفت أمي إلى حبيب عندما سكنا في نفس العمارة، كانا يلتقيان صدفة في درج العمارة. أعجبت أمّي به لأنه لا يضيّع الوقت في

المغازلات والكلمات اللزجة مثل بقيّة الرجال. ناما معاً منذ أول ليلة خرجا فيها معاً في موعد. كانا يتمشيان على أحد الشواطئ وكانت أمّي متأنقة ليلتها على غير عادتها. ارتدت فستاناً أبيض شفافاً أبرز جمال قوامها وتركت شعرها يغطي كتفيها العاريتين. في ذلك الوقت لم يكن الناس يهتمّون كثيراً بما يحدث في الشارع، لا يهمّ إن نام اثنان تحت سقف بيت أو على حافة بحر. على أحد شواطئ شيكاغو امتزجا كقطرتي ماء وتشكلتُ أنا. تؤمن أمي بأنها حملت بي في تلك الليلة. استمرّت علاقتهما بعد تلك الليلة لكنها كانت علاقة متوترة ومتقطعة. لم يكن رجلاً لامرأة واحدة ولا لمدينة واحدة. كان يتنقل كثيراً ورأسه يضجّ بأحلام لم تكن أمّي بينها. لم تتحمّل أمي هذا الإيقاع فافترقا بعد أشهر قليلة وانتقلت أمي إلى مسكن آخر في أقصى المدينة حتى لا تصلها أخبار غرامياته. وبدأت العمل بالتهريب فلم يكن لديها وقت لقصص الحب والغيرة. وحبيب بدوره لم يلاحقها كثيراً. فقط اقترح عليها أن يتزوجا حين أخبرته بحملها لكن أمي رفضت واكتفت بطلب نسبي له عندما أولد.

فكرتُ قليلاً وتمتمت بحيرة: تشبه حكايته مع أمي إلى حدّ كبير، افترقا خلال سنة واحدة حملت فيها أمي بي من دون تخطيط منهما.

تقول ماريا بعد صمت: "تعلمين جيهان... أظن أن كارول كذبت عليّ! لم تخبرني بوجود زوجة أخرى في حياة أبي."

فوجئت لسماع اسم كارول فسألتها: "كارول؟ هل لديك تواصل معها؟"

ضحكت ماريا لدهشتي وقالت: "كارول امرأة فضولية وتحب

معرفة كل شيء عن العلاقات وتواريخ العائلات. إذا شئت أضيفيها على الفايسبوك وتواصلي معها. قبل زمن التكنولوجيا ومواقع التواصل، بحثت كارول عني واتصلت بي بحجة أنها تودّ أن يكون لابنها ايريك التواصل مع عائلته. حصل هذا قبل سنوات، كان من السهل أن تحصل على رقمي عبر دليل الهاتف. دعتني إلى بيتها فزرتها لكن ابنها ايريك بالكاد سلّم عليّ وعاد إلى غرفته بلامبالاة."

لا أحد يعرف ما الذي حصل حقاً في السبعينيات ولا كيف بدأت حكاية أبي وما هي علاقته باختفاء عمي. بعد أول محادثة لنا بالسكايب فهمتُ أن للحكاية مفتاحاً متكوّناً من نصفين. نصف عند عمّتي مريم ونصف عند كارول طليقة عمّي نور الدين، ولولوج الحكاية عليّ جمع شذراتها وإعادة تركيبها بطريقة صحيحة.

أسألها بعد تردّد: "ماريا، حدّثيني عن علاقتك أنتِ به."

"لم أره كثيراً في صغري لكنني عندما بلغت سن الخامسة عشرة أردت التعرّف إليه وإلى نمط حياته. انتظرته أمام شقته إلى أن عاد. دعاني للدخول وجلسنا صامتين إلى أن سألته: لماذا لستَ في حياتي؟

"لا أستطيع أن أكون باستمرار في حياتك وأنا أمشي على أرض غير ثابتة. حين وصلت إلى أمريكا كنت مجرد فرخ حجل يعبر البراري مذعوراً. كانت الحياة هنا غريبة ولم أشعر بالأمان يوماً. وكأن فوهة بندقيّة مصوّبة نحو رأسي طيلة الوقت، الحياة هنا في أمريكا يا مريم عين بندقية مصوّبة نحو رأسي تتابعني ولن تتوقف حتى تصيبني. وأمك لم تمنح علاقتنا فرصة ولم تهتم بتكوين أسرة كانت لا تبحث سوى عن الثراء."

”لم أطلب منك شيئاً، طلبت منك أن تقوم بدورك كأب وتكون موجوداً في حياتي حين أحتاج إليك. مريم، أنا أرفض هذا الاسم، ما المغزى من اختيار اسم عربي لي بينما لا شيء يربطني بك أو بثقافتك، ألم يكن من الأسهل ان تسمّيني جينيفر أو ماريا مثلاً؟“

سكت أبي وقلّب الطعام بشوكته من دون أن يأكل وانتزع بتركيز مثير للأعصاب شرائح البصل من السلطة أمامه. صفقت الباب ورائي بعنف وأغلقت معه فصلاً من حياتي . في تلك اللحظة قرّرت نسيانه والمضيّ في حياتي. في طفولتي كانت أمّي تحب الاتكاء على حافة النافذة لتدخّن. رغم أنني كنت أمقت تلك الشقة بسبب الأساور الحديدية لنافذة غرفتنا. كانت أمّي تفتحها كل ليلة على الشارع الحافل بصخب المراهقين ومُروّجي المخدّرات المتنكرين. تراقب أمي الشارع بصمت وأراقبها بعينين نصف مغمضتين وأنا مستلقية على السرير في الطرف الآخر من الغرفة. أدّعي النوم لكنني لا أنام وأنظر إليها كل ليلة بنفس الافتتان. لقد كانت أمي امرأة جميلة وقويّة. أمي، جميلتي، تشبه جنّية الحكايات التي تنقذ الصغار في قصص الأطفال. حين كنت طفلة انتظرتُ عودة حبيب طويلاً، انتظرت أن تُقبله أمي كي يتحوّل إلى أمير ويخرجنا من تلك الزنزانة ويأخذنا لنعيش معه في بيت ذي حديقة أو شقة تطل على حديقة بدلاً من العلبة الاسمنتية التي عشنا بها لكنه لم يأتِ. أطلت تلك الشقة على الفناء الخلفي للمبنى حيث تتصارع القطط كل ليلة بينما تنبش القمامة. أذكر جيداً صباحاً ناصع الضياء من طفولتي. نزلت لألقي بأكياس القمامة حين لمحتُ خلف الحاوية الرماديّة الكبيرة حذاءً رياضياً. كان الحذاء أبيض اللون

وبه قدم. القدم تحملها ساق والساق جزء من جسد. اقتربت ببطء من يتوقع شيئاً غريباً لا يفهم كنهه ثم صرخت صرخة واحدة قبل أن يُغمى عليّ. كان الحذاء الرياضيّ لشاب أزرق وجهه من البرد بينما زيّن رأسه ثقب أحمر استقرّ فوق عينيه. لو ارتجفت يد القاتل قليلاً لرشق الرصاصة بين عينيه. هكذا كنت سأكذب على نفسي وأدّعي أن الثقب الأحمر زينة هندية وكنت سأتذكر وجهه في الكوابيس التي رافقتني طيلة السنين التي تلت ذلك الصباح، كوجه شاب هنديّ مبتسم من مومباي بدلاً من وجه غريب يزيّنه ثقب أحمر في الرأس".

"آسفة لتعرّضك لهذا الموقف القاسي يا ماريا، لا أجد كلمات المناسبة للتخفيف عنك. لكني أظن أن هذه هي حقيقة أمريكا، ما دامت الأسلحة متاحة ومرخصة للجميع. الطريف أنني أنحدر من مدينة يسمّيها الناس "شيكاغو الصغيرة" بسبب الإجرام والسرقات التي تفشت بها. تسألين عن معنى اختيار اسم عربي لك، هل أسماؤنا مهمّة حقاً؟ كان من الممكن أن نحمل أرقاماً بدلاً من أسمائنا وهذا أكثر عمليّةً حسب اعتقادي. وأنا أريد أن أسألك لمَ لم تكتفي بلقب والدتك، لماذا نسبت نفسك لزوجها؟"

ارتعشت شفة ماريا السفلى وصمتت محاولة السيطرة على غضبها. شغلتُ نفسي بتقليب سلسلة المفاتيح القريبة من يدي. سكتت ماريا طويلاً حتى خشيت أن تقطع محادثتنا عبر السكايب وربما فكرت في قطع علاقتها بي، لكنها تكلمت فتدفقت كلماتها هادئة بالرغم من انعقاد حاجبيها وتلاشي ابتسامتها: "لقد كان زوج أمي موجوداً دائماً لأجلي عكس حبيب هذا الأب البيولوجي الذي

لم يُكلف نفسه ولو عناء السؤال عني. ريتشارد حضر اجتماعات الأولياء بالمدرسة وأمسك بيدي حين أجريت لي عملية نزع اللوزتين. وساعدني على الاختيار عندما احترت أيّ الاختصاصات أدرس في الجامعة. لقد كان ريتشارد موجوداً دائماً في حياتي وقدّم لي العناية والاهتمام، مثل أب حقيقي."

لم نكن أنا وماريا توأمين في الحزن، فبينما عشت طفولتي مظللة بالحزن لغياب أبي وشوقي إليه عاشت هي طفولتها في ظل الغضب والتجاهل المُؤدي إلى النسيان. لم أعرف ما الذي وجب عليّ قوله فحكيتُ لها ذكرى من ذكريات حزني: "أتفهّم غضبك يا ماريا لأنني شعرت بمثله لكن حزني كان أكبر من غضبي. حين كان عمري تسع سنوات، زارنا في المدرسة أشهر ساحر في البلاد وحين أنهى تقديم عرضه اقتربت منه وطلبت: "أيها الساحر مزيان، لطفاً هلا أحضرت لي أبي البعيد؟ أعلم بأن أبي ليس أرنباً يا سيدي الساحر يمكنك إخراجه من القبّعة، أبي رجل حقيقي. ستقول أبوك حجمه كبير ولا يمكن لقبعتي أن تحتويه، لكن يا سيدي الساحر مزيان ماذا لو جرّبت استخدام عباءتك، تقلبها من الجهة السوداء فيخرج أبي مبتسماً من جهتها الحمراء؟ يومها انحنى الساحر مزيان وربّت خدي بلطف، مسح دموعي بمنديله المزيّن بالنجوم وأهدى لي أرنباً صغيراً أبيض اللون، وضعه في صندوق كرتوني وقدّمه لي قائلاً بجديّة: "هذا الأرنب صديقي المفضّل، أصبح الآن صديقك فاعتني به جيداً."

القسم الرابع

غرفة موصدة في الطابق الثاني

١

جوني لم يكن صاحب السيرك ولا مروّض النمور، جوني لم يكن يمشي على الحبال الرفيعة على علوّ شاهق ليبهر الجمهور. جوني كان المهرّج. لم أكن أعرف كيف وصل إلى أمريكا. ربما كان يتنقل مع السيرك من بلد إلى آخر لتقديم عروضه. وربما هاجر أهله من إيطاليا في بدايات القرن الماضي، حملته أمّه في أحشائها وعبرت به البحر الأبيض المُتوسّط ثم مرّت بالأطلسي. ربما سافرت أمّه مع والده لملاحقة أحلامهما بالثراء في العالم الجديد، حاملة في رأسها أحلام عروس جديدة وعندما أصابتها حالات الغثيان الصباحي ظنّت أنها نتيجة لدوار البحر. ولكني لم أكن مهتمّة حقاً بالنبش في تاريخ جوني الشخصي. كل ما همّني أن تصلني رسالة منه، حتى لو كانت خربشة على قطعة ورق. كنتُ أشعر بأن جوني متردّدٌ مثلي، يسألني ولا يسألني. يريد أن يعرف ولا يريد. وأنا بدوري لم أرغب في أن يعرف. كنتُ أذهب إلى السيرك كل يوم لمشاهدة عرضه وحين يسمح وقتي أحضر نفس العرض مرتين.

أول الأمر كنت أجهل كل شيء عن الرجل الذي يتخفى وراء

الألوان والإيماءات والحركات المضحكة التي يتحفنا بها نحن جمهوره. لم أعرف أيّ الملابس يرتدي في حياته العادية وما هي ألوانه المُفضّلة، وأيّ العطور يحب وإن كان يضع عطراً أصلاً أم يكتفي برائحة جسده الطبيعية. ولم أعرف ما الذي يحبّه جُوني، وما الذي كان مهووساً بجمعه مثلاً. فهناك من يهوى جمع التحف القديمة مثل زبائن "حلم أفريقي" وهناك من تحب جمع الأحذية، وهناك من يحب جمع سدادات الفلين الخاصّة بقناني الشراب، وهناك من تجمع صدف البحر، وهناك من يحب جمع ربطات العنق. أمّا أنا فقد كنتُ وما زلتُ مهووسة بجمع معاطف الفرو وأمتلك مجموعة رائعة منها. مثلي لم يكن جوني يعرف شيئاً عن حياتي، لم يعرف شكل أيّامي كيف أقضيها ولم يعرف أصولي أو أحلامي. والأهم أن جوني لم يعرف أنني قيّدت نفسي إلى رُويْ بقفل وابتلعت المفتاح. لم يعرف أنني متزوّجة وأنني أصغر من زوجي بكثير. لم يعرف أنني أحب رُويْ ولا أفوّت فرصة للتعبير عن حبّي وامتناني. بمناسبة عيد ميلاد رُويْ تلك السنة مثلاً، احتفلت بالمناسبة على طريقتي. كنت سعيدة بأحدث معطف فرو ضممته إلى مجموعتي، فروه ناعم وبرتقالي اللون وقد قال لي البائع الذي باعه لي إنه صُمّم من جلد ثعلب من فصيلة نادرة. واحتفيت باشترائي للمعطف بأن ارتديتُه يوم ميلاد رُويْ، فوق جسدي العاري والدافئ وفي نفس اللحظة التي فتح فيها رُويْ الباب هتفتُ "عيداً سعيداً" وفتحت معطف الفرو.

جوني لم يكن يعرفني حقاً، ولم يعرف أنني انتظرتُ كلمة منه كي نلتقي خارج السيرك وخارج البيت وخارج كل الأماكن المعروفة.

أردته وأردتُ ذلك اللقاء بشدّة. أردتُ التمرّغ على فراش مجهول نامت عليه أجساد غريبة قبلي وغُسلت أغطيته عشرات المرات في آلة الغسيل. أردتُ انتظار جوني في غرفة ما، الغرفة رقم ٤٠٥ مثلاً في موتيل "القمر الضائع" أو "الموجة السابعة" أو أيّ موتيل من الموتيلات التي تعجّ بها المدينة. في لقائنا الأول سأرتدي فستان سهرة أسود. القاعدة تقول يجب أن تحتوي خزانة كل امرأة تهتم بأناقتها على فستان سهرة أسود. أنا لا أمتلك فستاناً أسود واحداً بل اثنين، أحدهما طويل بشق أمامي يكشف عن ساقيّ وآخر مفتوح الصدر ومُخرّم بالدانتيلا بأكمله. سأرتدي هذا الفستان لأجل جوني.

تعرّفت إلى جوني بالصدفة. كنتُ مارّة في الطريق حين رأيت أطفالاً متجمّعين أمام خيمة السيرك. فانضممت إليهم في الطابور ودخلت إلى عالم جوني وضحكت لبهلوانياته وخدعه، ضحكت للطريقة التي يجعّد بها أنفه الأحمر البلاستيكي الكبير. لم أفوّت أيّ عرض من عروض السيرك طيلة ذلك الصيف. وما عدا القبلات المسروقة على عجل تحت أشجار الحديقة لم يحصل في البداية بيننا شيء. كنت أقضم شفتي طويلاً بعد أن نتبادل قبلة محمومة. حاولت الهرب من رُويْ لكنّه طوّقني ببراءة ثقته بي وبكل ما قدّمه لي. كنتُ ملكة رُويْ وعبدة حبّه لي. كانت الرغبة بيننا قد ماتت منذ سنوات وحلّ مكانها الضيق ينسج بخيطانه شرنقة حولي فأحاول الانفلات منها. في الليل بعد أن يقبّلني رُويْ بحنان على خدّي ويستدير لينام، تحتدم الرغبة في جسدي فأتقلب ولا أنام. أتخيّل نفسي أتسلل من البيت، أركض مثل شبح في الشوارع باحثة عن شقة جوني. وفي

الصباح حين أستيقظ وأنظر إلى كل ما قدّمه لي رُويْ وكل ما امتلكته خلال تلك السنوات، أكره نفسي وأكره جسدي وأحقد على جوني.

في تلك السنوات توقف حبيب عن زيارتنا واكتفى بالاتصال هاتفياً برُويْ على فترات متباعدة، وتحوّل حبّه إلى ذكرى قديمة مثل وشم طُبع على قلبي وجسدي لا يمّحي لكنني تناسيته حتى نسيته. كانت علاقتي بجوني مثيرة. كنا نركض معاً تحت المطر والكفّ تحتضن الكفّ، غريبان التقيا على أرض غريبة ويلهوان ببراءة. كم ضحكتُ نهاراً وبكيتُ ليلاً من شدة رغبتي بجوني. أرفع يدي لأتحسّس وجهه ثم أعيدها إلى جيبي. أتذكّر فخاخ الحب الذي لا يوصل إلى شيء وأتذكر رُويْ فأتراجع وأهرب. ربما أحسّ رُويْ بتغيّري لكنه لم يصرّح ولو حصل هذا فعلاً فإنني أشهد له بأنه شاطر. لو تفطّن لاضطراب نومي وتقلبي في الليل، لو تفطن لانقلاب مزاجي واكتشف الأعذار الواهية التي نسجتها لأتمكن من لقاء جوني وتغاضى عن هذه العلامات كلها، فإن رُويْ كان حقاً أشطر منّي. لقد عشتُ صراعاً بين مزاجين. كان مزاجي في الليل يتعارض مع ما يولّده مزاجي في الصباح من أفكار. في الليل أفكر بأن الجسد جسدي وبأنني حرّة ماذا أصنع به. وفي الصباح تصحو معي فكرة تعذبني طيلة النهار، فأفكر بأنني حقاً حطبة جهنّم تحرقها رغبة لا تنطفئ. في الأسبوعين الأخيرين من وجود السيرك في شيكاغو لم أفوّت عرضاً من عروض جوني. تابعت حركاته الرشيقة وبهلوانياته الرائعة وخدّرت تردّدي بشهد اللذة التي عرفتها بين ذراعيه في تلك الأيام الأخيرة. كان جوني وسيماً بغمّازتين ساحرتين حين يضحك وشعر

بنّي طويل وناعم يتهدّل حول وجهه فيرفعه بحركة مثيرة ليحكم شدّه بمطيطة زرقاء اللون. كان أطول منّي بجسد رياضي وكتفين عريضتين يتفاخر بأنه اكتسبهما لمواظبته على السباحة يومياً منذ صغره. وكنتُ امرأة يفيض جسدها بالرغبة، برعماً متفتحاً ينتظر من يقطفه لا من يركنه تحفة يُزيّن بها البيت، ثمرة ناضجة يسيلُ نسغها الشهيّ. وكنت في تلك السنوات قد أغرمتُ بارتداء تنانير الجلد السوداء القصيرة تعلوها بلوزات مُلوّنة عارية الكتفين، أرتديها في فصل الشتاء تحت معاطف الفرو وأضع أقراطاً لافتة على شكل ريشتين وعقداً طويلاً من الخرز المُلوّن.

فعلياً لم أكذب على رُويْ فقد صدّقتُ الأكاذيب التي أخبرته به، كنتُ أكذب الكذبة وأصدّقها. أعيش الكذبة فلا أخطئ. وكثيراً ما عاودتُ الاتصال بنيروز لأسألها إن كنتُ تركت عندها سواري المصنوع من الجلد المضفور أو لأسألها إن وصلت سالمة إلى بيتها بعد أن افترقنا من ساعة أمام قاعة السينما. كانت مواعيدي الوهميّة مع صديقتي مُقنعة حتى أني أنا نفسي صدّقتها. فإن قلت إن لديّ موعداً مع نيروز، أتصرّف وفق هذا الموعد فأؤلف تفاصيل حدثت خلال لقائنا وأصدّقها. ولو سألني رُويْ أو أحد سواه ولو بعد سنة من اللقاء فإنني كنتُ أعيد نفس الإجابات بإيمان مُطلق بأنها حدثت فعلاً وكنتُ أجيب من دون أيّ تفكير أو تردّد بأننا ذهبنا إلى أحد مراكز الاسترخاء وحظينا بجلسة تدليك على الطريقة السويدية.

كأنّ امرأتين مختلفتين عاشتا داخل جسدي. فبعد الوقت الملتهب الذي أقضيه بين ذراعي جوني كنت أخرج وأمشي في الشارع بهدوء

منتبهة لخطواتي بالكعب العالي ومجهّزة للكلمات التي سأحدّث بها رُويْ عن موعدي مع نيروز. مهما كنتُ ثملة لم أنسَ يوماً ارتشاف إسبريسو سريعة قبل العودة للبيت. مهما كنت منتشية بلمسات جوني لم أنسَ يوماً استعادة هيئتي، هيئة الزوجة المُحبّة وأنا أدخل إلى البيت. وسواء وجدتُ رُويْ بانتظاري يشاهد التلفاز أو نائماً على الأريكة، كنت أقترب على أطراف أصابعي وأقبّلهُ على خدّه مثلما اعتدتُ أن أفعل كل يوم طيلة سنواتنا معاً. كنت أناديه حبيبي بحكم العادة وأقبّله بحكم العادة وأنام بجانبه على نفس السرير بحكم العادة. فصلتُ بين المرأتين والعالمين بمهارة. فقط في الليل حين أتأكد أنه استغرق في النوم أستسلم للذّة تذكّر أوقاتي مع حبيبي جوني. رحل جوني برحيل السيرك عند انتهاء الصيف.

٢

عرفتُ أُوميد، عشيقي الثاني والأخير، بعد خمسة عشر شهراً من موت روي. كان عمري خمساً وثلاثين سنة وتجاوز رُويْ السبعين بخطوات واسعة عندما مات. بموته امتلكت نفسي لأول مرّة. شعرتُ بخفة مُذهلة، ولولا أنه لم يسبق لي أن سُجنت لقلت إن شعوري كان شبيهاً بشعور سجين حُرّر للتوّ واستقبل الهواء المنعش وأشعّة الشمس على وجهه لأول مرة منذ سنوات. فبعد خمس عشرة سنة من الزواج، كنت أخيراً حرّة. حرّة من فارق السن الذي فصل بيننا ومن جذوري وقد تحوّل الوطن بعد تلك السنوات الطويلة إلى ذكرى. أدّيتُ واجبي نحو عائلتي على أحسن وجه، وبفضل الحوّالات التي أرسلتها حصل إخوتي على حياة أفضل وارتادوا أفضل المدارس والجامعات وأرسلتُ أمّي إلى أفضل الأطبّاء قبل أن تستسلم للّمسة الحانية للموت.

وصل أوميد إلى أمريكا ضمن موجة الهجرة التي سبقت الثورة الإيرانية. تعرّفتُ إليه في سهرة ببيت صديقتي نيروز. بعدما رقصنا وقبّلني بخفّة في عنقي سألني إن كنت أحب "الفلجة" بين أسناني.

لم أعرف ما الذي قصده بكلماته لكنني ابتسمتُ حين أضاف أنهم في بلاده يعتقدون أن المرأة التي لديها فلجة ستكون ثريّة. دغدغت كلماته أحلامي بالثراء وأعجبتُ بانبهاره بي. فصلتُ بين عالم الأرملة وعالم العاشقة ولم أدعه قط إلى بيتي. كنا نلتقي في شقته المتكوّنة من غرفة واحدة عارية الجدارن، وُضع فيها سرير ومنضدة استقرّت فوقها مجلّات بُورنو وكتاب مهترئ الغلاف عنوانه "البومة العمياء". كان العنوان يجذبني فأشعر برغبة قويّة في فتحه. كلما دخلت غرفة أوميد ونظرت إلى الغلاف فكرت أن الكتاب بكل تأكيد مهم كي يمتلكه رجل مثله لا يقرأ ولا يهتم بالفن عامّة. "لماذا البومة عمياء؟"، سألتُ أوميد بفضول في إحدى الليالي وأنا مستلقية على بطني أنظر للكتاب الذي يعلو كومة المجلات، فقلّب أوميد شفتيه بلامبالاة وقال: "لا أعلم، حملته معي لأتسلى به في الطائرة لكنني لم أقرأه. عليك أن تقرئيه لتعرفي". وهكذا استعرت الكتاب ولم أعده على الإطلاق. ربما كانت "البومة العمياء" هي الرواية الوحيدة التي قرأتها طيلة حياتي. كانت حكاية غريبة لا أدّعي أنني فهمتها لكنني أحببتُ الأفكار والأسئلة التي ولدتها داخل رأسي.

انتهت علاقتي بأوميد عندما تحوّل إلى ظلّ ضخم يخنق أنفاسي. ربما كان الحصار الذي طوّقني به هو ما دفعني للعودة إلى حبيب. لكنني بالأساس قطعت علاقتي بأوميد لأنني مللت منه ومن كسله الغريب. كان يتذمّر طيلة الوقت من عدم توفر فرص عمل بينما يقضي في الحقيقة معظم الوقت في شقته يشاهد التلفاز لساعات. كان يردّد على مسامعي "أنا دبّ نائم في سباته الشتوي سأبحث جدّياً عن

عمل بعد انقضاء فصل الشتاء". لم يتكبّد حتى عناء أن نلتقي خارج شقته. لم نسهر ولو مرة خارج تلك الشقة المُروّعة. شعرت بالكآبة تخنقني ورغبت في هجره. حلّ الربيع وتلاه صيف مشمس جميل لكن أوميد استمرّ في قضاء أيّامه على الكنبة أمام التلفاز، لم يتحرّك من أمامها إلى أن قطعت علاقتي به. تحوّل الرجل المسالم إلى رجل آخر مهتاج يقذف نوافذ بيتي بالحصى وهو يصرخ: "إمّا أن تعودي إليّ أو سأحطم وجهك أيتها العاهرة." كنت أعرف ما الذي يجب عليّ القيام به لكنني تردّدتُ. كان صوته يزعجني أكثر من تهديداته فأتحرّك محاذرة إثارة أيّ ضجّة تنبّهه إلى وجودي في الداخل، وأصيخ السمع للأصوات في الخارج منتظرة رحيله. في الليلة الثانية التي تسمّر فيها أمام بيتي أرعبتني طرقاته العنيفة على الباب فالتقطت سمّاعة الهاتف وأنا أستمع لصراخه: "أعرف أنك بالداخل يا كلبة، سأحطم هذا الباب وأعلمك كيف تحسنين معاملتي."

"حان الوقت لانهاء هذه الحكاية." قلتُ بصوت خافت وأنا أتصل بالشرطة.

بعد خمسة عشر شهراً من موت رُويْ وبضعة أشهر من مواعدة أوميد، التقيت بحبيب مُجدّداً. في ذلك المساء البعيد، حدثني حبيب عن نجاح محل الإلكترونيات الذي افتتحه وعن زواجه بامرأة تُدعى مُنيرة. سحقت السيجارة في المنفضة من دون أن أنتبه لكوني لم أشعلها أصلاً. ربما كانت وخزة الغيرة التي نقرت قلبي واضحة على وجهي لأن حبيب يومها ابتسم وقال "يا للعجب، أزعجك الخبر، هل غرتِ؟"

هكذا وبسبب غيرتي من امرأة مجهولة تزوّجها حبيب قرّرتُ استعادته ونجحتُ. طلق حبيب منيرة في أول إجازة عاد فيها إلى تونس، بعد أن ترك بذرة في رحمها من دون أن يعلم أو يُخطط لذلك. كان حبيب أعطية منحها لي نهر الحياة مُجدّداً، ولم أرغب في خسارته. كان مثل سلة فوق النهر سحبتُها قبل أن يجرفها التيّار. عندما كنتُ مع رُويْ، افتُتنت بمعاطف الفرو وتنانير الجلد والأحذية العالية، وعندما أصبحتُ مع حبيب أغرمتُ بالسفر والأزياء ذات التصاميم العالمية والعطور المُخدّرة للحواس. في سهراتنا معاً كان حبيب الصامت عادة يتحوّل إلى مُحب للكلام فيحدثني عن مغامراته مع النساء كي يستدرجني للحديث عن مغامراتي لكنني لم أقع في فخاخه أبداً. حدّثني كيف كان يغوي النساء بحكاياته وبصمته أيضاً. وحدثني حبيب مُجدّداً عن لقائه الأول برُويْ "حين كنت في فرنسا تعرّضت لحادث في المصنع الذي كنت أتدرّب فيه فأدخلت للمستشفى للعلاج وهناك تعرّفتُ إلى رُويْ. قبل أيام من مغادرتي المستشفى، انضمّ لي في الغرفة كهل أمريكي ورغم أنني تعافيتُ وغادرت المستشفى عدتُ لزيارته مدفوعاً بالشفقة فلم يكن أحد يزوره وتخيّلت شعوره فقد شعرت مثله في أيّامي الأولى بالمستشفى. عندما زرتُه لم أطمع أو أعرف حتى أن ذلك الرجل قادر على مساعدتي وأنه سوف يكون جسري نحو مستقبل أفضل. كنت آخذ له جريدة بالإنكليزية وفاكهة حتى إنني أخذتُ له مرة صحفة "لبلابي". كان يوماً بارداً وفكرت بينما أجهز طعامي في الشقة التي تقاسمتها مع آخرين بأنه سيكون من اللطيف أن أحمل للأمريكي

المسكين وجبة ساخنة وشهيّة وستكون بكل تأكيد أفضل من طعام المستشفى. في البداية صُدم رُويْ للمذاق الحاد وشرب الكثير من الماء ثم واصل الأكل باستمتاع. ربما كانت وجبة الطعام تلك هي ما وطّد علاقتي به أو ربما زياراتي وحسب. لكن رُويْ، عند اقتراب موعد عودتي إلى تونس، سألني هل فكرت في الهجرة إلى أمريكا بلاد الفرص. ما لم يخطر ببالي يوماً أننا سنصل أنا وأنتِ إلى هذه البلاد عبر مسارين مختلفين. لم أفكر يوماً أنك ستغوينه أنتِ التي كنت تدّعين حبّي وقتها."

"لم أصدّق أن رُويْ سيفعلها ويزور تونس حقاً لإقناع أهلي بالسماح لي بالسفر إلى أمريكا. لقد كنت يافعاً وقتها أمتثل لكلام أبي امتثالاً أعمى، يومها تحدّث رُويْ طويلاً مع أبي الأبرق بفرنسية مُتكسرة وأقنعه "حبيب ذكيّ وقادر على النجاح، سأساعده لأنه أصيل ويستحق مستقبلاً أفضل. حبيب مثل ابني بل أفضل من أبنائي الذين من لحمي ودمي."

٣

بعد سبع عشرة سنة على انتهاء قصّتنا، تزوجتُ حبيب.

سبع عشرة سنة فصلت بين الطفلة المتلهّفة على قضم الحياة بملء أسنانها وسيّدة الأعمال الناجحة التي تأسر مستمعيها إن تكلمت. لو بقيت في تونس لظللتُ مُعدمة من الطموح والأحلام التي يمكن تحقيقها في أمريكا بلاد الفرُص المُمكنة.

بعد زواجنا، قرّرنا دخول مجال الاستثمارات العقارية. غامرتُ بكل شيء ورهنتُ بيت رُويْ والمحل وحصل حبيب على قروض ولعبنا لعبتنا. قامرنا وكان الحظ حليفنا. ربحنا أكثر ممّا خسرنا وراكمنا الأموال. دوّخنا الشراء فاستسهلنا اللعبة نشتري ونبيع المنازل، نلعب بالأرقام والعقارات والأحلام. ثم دخلنا الألفية الجديدة ودخلها معنا منافسون جدد للسوق واستيقظنا جميعاً سنة ٢٠٠٨ على خبر الأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم. جبال من الأوراق النقدية تلاشت وتحوّلت إلى أرقام بلا معنى. خسر المستثمرون استثماراتهم العقارية وخسر آخرون وظائفهم ووقفنا في طوابير أمام البنوك مطالبين بتوضيحات وباستعادة أموالنا.

وبينما انهارت أسعار العقارات بطريقة مرعبة ارتفع سعر الذهب وكان هذا طوق النجاة الذي سمح لنا بأن نطفو على سطح الأزمة وحمانا من الغرق. كنت قد راكمتُ على امتداد السنوات، مثلما تفعل النساء لمواجهة الزمن، صندوقاً مليئاً بالحليّ. بعتُ ما في الصندوق دون ندم، عقداً طويلاً مشكلاً من خمسين ليرة إيطالية من الذهب الخالص، وخواتم من الألماس البلجيكي وأساور مرصّعة بالأحجار وبروش كبير الحجم على شكل طاووس مرصّعاً بالزمرّد الأخضر. طفونا على سطح الأزمة لكننا خسرنا البيت والمحلّ وسيّاراتنا. وكأن هذا لم يكن كافياً. قطعت الخسارة صِمام الأمان في قلب حبيب وأصيب بأزمة قلبية.

لم يعد من المهم أن نفهم كيف تحوّلت نقودنا وعقاراتنا إلى أرقام لا قيمة لها. فقد أدركنا أن أموالنا تلاشت وأن البنوك لن تعيد لنا فلساً. وبالمبلغ الوحيد الذي استطعنا الاحتفاظ به أجّرنا بعد تعافي حبيب محلاً أطلقنا منه مطعماً للوجبات السريعة، بالكاد احتوى على خمس طاولات. كنت أؤمن بأنني ما دمتُ في أمريكا وما دمتُ أرغب في النجاح فسأحققه. أخرجت دفتر الوصفات الذي اشتريته قبل ثلاثة عقود وراجعت الوصفات التي سجلتها بخط أنيق سيدة تفننت في إعداد الطعام بحب. وتفننت بدوري في إعداد تلك الوجبات ومزجت المألوف بغير المتوقع. دجاج مقرمش مع صلصة يقطين، دجاج مشوي مع صلصلة صنوبر، فطائر بالدجاج وصلصة الثوم. كل فم تذوّق طعامنا تحدّث عنه لآخرين وهكذا ازداد عدد الأفواه التي أرادت الاستمتاع بوجباتنا. وسرعان ما بدأنا

باسترداد عافيتنا الماليّة فبدأت أحلم بالتوسّع وتخيّلت فروعاً لمطعمنا مرشوقة في كامل أمريكا وحلمتُ بعينين مفتوحتين أننا سنكبر خلال بضع سنوات وسيتحوّل مطعم "دجاج أفريقي" إلى سلسلة مطاعم عالمية. وبارتفاع عدد زبائننا وظفت نادلة وسائقاً لإيصال الطلبات التي نتلقاها بالهاتف. وبالرغم من أنني آمنت إيماناً أعمى بأنه ما دام رأسي في السحاب وقدماي على الأرض فسأحقق أحلامي بالثراء مُجدّداً إلا أنني كنت خائفة، فأيّ خطوة غير مدروسة قد تؤدّي إلى التصدّع النهائي وغرق قاربنا.

لقد عدتُ إلى تونس لأدفن حبيب ومن ثمّ أعود مباشرة إلى مطعمي وحياتي في شيكاغو ولم يخطر ببالي إمكانية بقائي للعيش من جديد في هذا المحيط الشبيه بدائرة. بسبب إغلاق المطار أجبرتُ على تمديد إقامتنا أنا ودلال. وها نحن عالقتان هنا إلى أجل غير مُسمّى. كل خطوة أخطوها في شوارع هذه المدينة ذكّرتني بحكاية خروجي أول مرّة من هنا وكسري لهذه الدائرة التي يهرب كل من خرج منها. كنت واحدة من الذين خرجوا ولم أرغب في العودة عندما رغب حبيب في ذلك. كنت سأتحمّل فشلنا وإفلاسنا أكثر من تحمّلي للعودة. لم أخشَ من الوقوع ومحاولة النهوض مُجدّداً. فضّلتُ هذا على العودة للعيش في دائرة أبوابها المُقفلة أكثر من المفتوحة. دائرة يقف فيها خلف كل باب نطرقه، مُتكاسل أو مُرتش أو شخص غير مُبالٍ ببساطة، حيث إصدار رخصة أو ورقة رسميةً يستوجب أيّاماً من الذهاب والإياب.

٤

وجدنا في البيت أخوات حبيب وابنته جيهان وأقرباء العائلة وبعض الجيران. بالكاد نظرت دلال للناس، قدتها مباشرة إلى غرفتها كي ترتاح. منذ وفاة حبيب تحوّلت دلال إلى ماريونات بين يديّ أقودها وأوجّهها بلين كي لا تنهار. دلال التي لم يهتم حبيب حين علم بحملي بها تحوّلت بعد ولادتها إلى طفلة أبيها المدللة وتحوّل هو إلى رجل آخر يعتني بها، يحمّمها ويناغيها حين يطعمها. كانت دلال طفلة مرحة تبتسم للغرباء في الشارع ولا تنفر من عاملات النظافة في أروقة المولات وتسمح لهنّ بحملها وتقبيلها، وتلاحق الأطفال حين تراهم كي تلعب معهم. لم أشك يوماً في أن دلال كانت متعلقة بحبيب أكثر مني ولم يضايقني هذا. طفلة كانت عندما ترى كابوساً تتجه مباشرة لتنام بجواره، ومراهقة كانت تلجأ إليه حين تواجهها مشكلة من مشاكل البنات. يا لسوء حظها. مات حبيب بين يديها ولا أعرف كيف ستتعافى من هذه الصدمة. لم تنبس بكلمة منذ وصلنا وأشك في أنها أصغت لكلمات المواساة التي كرّرتها على سمعها.

كانت الليلة التي تحلقنا فيها حول جسد حبيب من أطول الليالي

التي عرفتُ خلال سنوات عمري الخمسين. ورغم أني أعلم بأن سواد الليل مُتماثل في كل مكان من العالم، كان سواد تلك الليلة مضاعفاً في عينيّ. حدّقت بجيهان خلسة. لم تكن تشبه حبيب على الإطلاق. كان مظهرها غريباً، فقد كان الفستان الأسود الذي ترتديه ملائماً لامرأة أكبر سناً وتنافر بوضوح مع شعرها "الديغراديه" الذي أحاط بوجهها الناعم والشاب. علمتُ بأنها أصبحت طبيبة في مستشفى "وسيلة بورقيبة" للأطفال. يا لسرعة الأيّام، ما زلتُ أتذكر جيهان طفلة شاحبة البشرة تلعب قبالة البيت وتتصرّف كأنها من أطفال الحيّ. كنتُ أراها تلعب معهم لعبة "الحجلة" فتلقي بالحجر وتقف على المُربّع دون حركة وهي تنظر صوب بيتنا. تقف على ساق واحدة شاخصة بنظرها إلى النوافذ الموصدة حتى يصرخ فيها أحد الأطفال طالباً منها مواصلة القفز. كنت أراها تلعب معهم بنوى المشمش بدلاً من البليات ولا أهتم. وأراها تجري وتسابقهم ولا أهتم. وعندما بدأت تلعب معهم كرة القدم أثارت انتباهي. وتساءلت لماذا كانت تحب تلك الطفلة المجهولة اللعب مع صغار كان من الواضح أنها أكبر منهم. راقبتها في الأيام التالية من وراء النافذة وتابعتُ نظراتها. كانت بين كل ركلة وأخرى تنظر ناحية البيت بقلق وترقب. تتبّعتها حتى منزلها البعيد، وحين سألت عنها في حيّها عرفتُ من تكون.

لم ينتبه الأطفال الذين لعبت معهم جيهان إلى أنها كانت غريبة عن الحيّ، أو ربما انتبهوا ولم يهتمّوا، وربما انتبهوا وسألوها فادّعت أنها من حيّ مجاور. كذلك لم ينتبه أحد في بيتنا لوقوفها المُتكرّر واليومي في شارعنا. وبدوري فعلتُ كل ما بوسعي كي لا ينتبه حبيب

خاصة بعد أن سمعته يسأل إحدى أخواته عنها، بصوت لا يشبه صوته: "مع من بقيت البنت؟ مع أمّها وزوجها أم مع جدّتها؟" لم أسمع الإجابة لكنني سمعته يقول بحدّة: "قانونياً يحق لي المطالبة بحضانتها الآن". لم أسمع بقيّة الحديث لأنني ابتعدت بعد أن سمعت اقتراب خطوات من الباب.

تضايقتُ من اهتمام حبيب بتلك الطفلة الشاحبة مثلما تضايقتُ عندما لمحت هداياه لها في حقيبته، ملابس ودفتر جلدي أخضر اللون غلافه من الجلد الفاخر وحقيبة على شكل ميكي ماوس محشوّة بشوكولاتة على شكل ميكي وميمي وعلبة أقلام كُتب عليها أنها تحتوي على مئة وعشرين قلماً ملوّناً ودمية كبيرة الحجم. رأيت الهدايا في حقيبته ولم أسأله عنها. أظن أنني رغبت في إنجاب طفل بسبب جيهان ووقوفها في الشارع. قبل ذلك الصيف لم أتخيّل نفسي أحمل مخلوقاً داخل بطني كما لم أتخيّل أنني سأعتني بطفل يبكي طيلة الوقت مطالباً بتلبية حاجاته. لكنني في ذلك الصيف كنتُ كلما رأيت جيهان تلعب أمام البيت بعناد وإصرار تحت الشمس، رغبتُ في إنجاب طفل من حبيب. في تلك الأيّام تذكرت سخرية أمّي من الجارات اللاتي يتنافسن في الحَبل فتقول "لولا الغيرة ما ولدت النساء". وأردت أن أقول لها "لا تلد النساء بسبب غيرتهن بعضهنّ من بعض فقط" لكن أمي كانت تحت التراب.

القسم الخامس

بيت يطل على شارع جانبيّ

١

تسللتُ خارج الغرفة بعد أن تأكدت من استغراق عمّتي في النوم. قلبت المفاتيح بحيرة فلم أكن أعرف شكل المفتاح الذي كنت أبحث عنه. أخذت علاقة المفاتيح وخرجت لليل ديسمبر البارد. صعدت الدرج الأول بخفة محاذرة إثارة الضجّة. التفتُّ ورائي وخفتُ. شعرتُ كأنني كنت أتحرّك داخل منام رأيته في زمن سحيق ونسيته. لا أعرف ما الذي كنت أفعله وحدي في تلك الساعة من الليل تحت سماء سوداء في مدينة تعيش ليلتها الثانية بعد الإعلان عن حالة الطوارئ. استنشقتُ نفساً طويلاً وصعدت بسرعة الدرج الثاني الذي يقود نحو بيت الطابق الثاني. جرّبت أكثر من مفتاح إلى أن انفتح الباب. تسارعت دقات قلبي وشعرتُ بالحماسة والإثارة. سينكشف لي جزء مهم وحميمي من حياة والدي. توجّهت مباشرة نحو غرفة النوم. تأمّلت السرير ذا الأعمدة بخشبه الأسود وتحسّست رقة الستائر البيضاء التي أحاطت به من كل الجهات. سحبت ستارة الجهة اليسرى مفترضة أن أبي كان ينام من الجهة القريبة من الباب. تحسّست الوسادة الطريّة مُستنشقة رائحتها بحثاً عن بقايا من رائحته لكنني لم أشتمّ سوى رائحة مُنعّم الملابس.

ألقيت بنظرة أخيرة على السرير المفروش بغطاء كريمي اللون، بُعثرت عليه وسائد مربّعة الشكل بنفس اللون قبل أن أتجه نحو التسريحة التي رشقت على سطحها قوارير عطر وانتصبت بينها تشكيلة من أقلام الحمرة في فوضى مقصودة. فتحت أحد الجوارير فوجدت قرطين ربّما كانا من اللؤلؤ الحقيقي. لطالما تهامست عمّاتي بأن أبي يُدلل صوفيا أكثر ممّا ينبغي وبأنهما مثل الأعمى وعصاه، تقوده حيث تريد. إن قالت له يمين ذهب يميناً وإن قالت له ألقِ بنفسك في البحر فعل. تهامسن أيضاً بأنها سحرته وإلا ما كان ليتزوجها. ما زلت لا أفهم لماذا تعتقد عماتي بأن أبي كان ضحيّة تتنافس النساء للإيقاع به في شباكهن.

فتحت بقيّة الأدراج فوجدت مجموعة من الباروكات، باروكة شعر أحمر وأخرى بشعر أشقر فاتح مثل لون شعر باربي، وأخرى بشعر بنّي مجعّد طويل. لا أفهم لماذا تحتاج زوجة أبي للباروكات وهي التي حافظت على نفس قصّة شعرها الصبيانية لسنوات. ووجدت ملابس داخلية في مجملها سوداء اللون ومزيّنة بالريش، ومشدّ رأس على شكل أذني أرنب. شعرتُ بأنني فتحت الخزانة السرّية لشيء حميميّ مجهول فاتني فهمه وذكّرني بالأيّام التي تلصّصت فيها على حياة أمي وزوجها. فتحت خزانة الملابس بحثاً عن ملابس أبي. كانت قليلة، بدلة شتوية وحيدة معلقة يُجاورها الفراغ بينما رُتبت ملابس صيفية كثيرة على الرفوف.

اقتربت من الطاولة التي نُصب عليها التلفاز وتحته على الرف السفلي جهاز فيديو ماركة سوني. وجدت أشرطة فيديو وكتباً عن الاستعمالات العلاجية للنباتات. مرّرت أناملي على أغلفة الكتب

بحنين ثم قرأت عناوين أشرطة الفيديو "كاراكون في الشارع"، كينغ كونغ وكازابلانكا. خفق قلبي بقوّة حين لمحت شريطاً مُوارى خلف جهاز الفيديو. كان من دون اسم أو تاريخ. مسحتُ الغبار عنه ومن دون تردّد وضعته في الجهاز وضغطت زرّ التشغيل. انطلقت الوشوشة الأولى للشريط المجهول، فجلست على الأرض أتابع الشاشة بأنفاس متسارعة. تجولت الكاميرا بطريقة دائرية مصوّرة أحد الشواطى ثمّ لاحقت امرأة كانت تركض بمرح. لم أعرفها حتى اقتربت الكاميرا من وجهها في لقطة زُووم مُكبّرة. كانت كارول ستبدو أكثر إثارة في ثوب البحر الأخضر الذي ترتديه لولا نظارتها الطبّية المُربّعة الإطارات التي غطت نصف وجهها العلوي. توقف المشهد ولم تتغيّر الصورة لدقائق. ثبّتت الكاميرا على مشهد شاطئ بحر خالٍ من البشر. وكأن الكاميرا وقعت وظلت موجّهة نحو نفس النقطة. سمعت همساً وضحكة خافتة وأصواتاً بعيدة لأطفال يلعبون في مكان ما من الشاطئ. فجأة احتل أبي الشاشة بوجهه الأسمر الهادئ وابتسامته الواثقة. غمغمت كارول بكلام لم أتمكّن من فك شيفرته فأطلق أبي ضحكة جذلى ثم سحبها إلى صدره العاري حيث انتشرت شعيرات خفيفة. أمسك الكاميرا بيد وبالأخرى احتضن كتفي المرأة. ثم هتفا معاً للكاميرا "نخب الحياة... نخب صداقتنا".

استعادت الشاشة سوادها. اندفعت نحو الجهاز وأرجعتُ الشريط عند الدقيقة التي ظهر فيها أبي ثم اقتربت من الشاشة متحسّسة وجهه. أعدت اللقطة التي كان يضحك فيها مراراً وتكراراً إلى أن تعبت فأعدت كلّ شيء مكانه وخرجت.

في الصباح استيقظت متأخرة ووجدت عمّتي مريم تدخن في المطبخ. كانت عيناها متورّمتين أكثر من البارحة. سكبت لي من نفس القهوة السيّئة المذاق وسألتني هل قرأتُ الرسائل وهل أرغب في الاستماع لما تعرفه عن حكاية كارول مع الأخوين، توقفت عمّتي لتسحب نفساً من سيجارتها قبل أن تستأنف الكلام:

لا أعرف كيف كانت البداية، على الأرجح كارول كانت حبيبة أبيك، وعمّك أحبّها دون أن يعرف بعلاقتهما السابقة. فقط حين دعا أخاه لزيارته في شقته الجديدة كي يعرّفه إلى حبيبته وزوجة المستقبل، عرف. لم يقل حبيب يومها كلمة، غادر بسرعة دون أن يهنّئهما لا بالخطبة ولا بالشقة الجديدة. ادّعت كارول أن حبيب كان صديقاً مقرباً لا أكثر ولا أقلّ وأنها لا تفهم لماذا تصرّف بتلك الغرابة.

علمنا بالحكاية حين عاد نور الدين وحده في إجازة قصيرة ولحقته كارول. كنّا نعرف أن له حبيبة ولكننا لم نتوقع ولا أظن أن نور الدين أيضاً توقع أن تلحق به كارول من طرف العالم وتدّعي أنها زوجته وحامل بطفله. لم يصدّقها وأخذها إلى طبيب النساء الذي أكّد الحمل. قضيا أقل من أسبوع في تونس ثم عادا إلى أمريكا معاً. لاحقاً عرفنا من كارول أنهما افترقا أمام باب المطار. لم نعرف ماذا حصل بينهما بالضبط لكن كارول واظبت على كتابة الرسائل لنا بنفس الكلمات الودودة وكأن شيئاً لم يكن. أعلمتنا بولادة الطفل وبعدها كتبت لنا تخبرنا انفصالهما "حصل الطلاق بيننا ودّياً. ولا أعرف إلى أين انتقل نور الدين. يتصل بي من وقت إلى آخر هاتفيا ليسأل عن الصغير. لم يترك لي عنواناً أو رقم هاتف لأتواصل معه."

كتبنا نسألها عن السبب الحقيقي لانفصالهما فادّعت أن نور الدين التحق بالفدائيين الفلسطينيين في لبنان. لا أحد منّا صدّقها وقتها وانتظرنا عودته. وها نحن ننتظر منذ ثلاثين سنة أو أكثر. أمّا حبيب فقضى السنوات التي تلت خسارته للمطعم يشتغل أشغالاً تافهة بينما تخيّل الناس هنا أنه كان رجل أعمال يراكم الدولارات في حسابه المصرفي ويعيش في فيلا بمسبح. عمل نادلاً في أحد الفنادق وعتّالاً في الميناء يحمل صناديق السمك وبائع آيس كريم يقف وراء عربة يبيع البوظة للمصطافين. صوفيا أنقذت حبيب وأقرضته المال اللازم ليبدأ من جديد. فقد كانت وقتها فوق الريح بعدما ورثت أملاكاً وأموالاً لا تُحصى من زوجها الأمريكي.

والدك مات في قلب جدتك لطيفة منذ سنوات. منذ اختفى نور الدين ولم يبرّد حبيب قلبها بأخبار أخيه. كانت السنوات تمرّ، ويعود فيها حبيب ولا يعود نور الدين. لم يعد يتّصل بنا ولم تصلنا منه أيّ رسائل جديدة. لم نعد نعرف عنه شيئاً. وكأنه تبخّر فجأة. حتى كارول توقفت عن الرد عن رسائلنا. سألت أمّي حبيب حتى تعبت هي وتعب هو. كان يرفض الإجابة عن أسئلتها، يسكت، يتأفف، يتهرّب ويصرخ في آخر الأمر، "لماذا لا تصدّقين أنني لا أعرف أين ذهب ابنك؟ سأتوقف عن العودة إلى تونس إن لم تتوقفي عن تكرار هذه الأسئلة. أنتِ من طلبت منّي مساعدته على الهجرة وفعلت هذا فقط لأجلك. وفي الآخر ماذا ربحت؟ ابنك عرّى رأسي وخسرت المطعم ثم رحل بكل بساطة".

كثيراً ما تساءلنا إن كان حبيب يعلم مصير نور الدين وأخفى الحقيقة عن الجميع، وشككنا في أن نور الدين قُتل وأن حبيب مُتورّط في مقتله.

كان حبيب هو من أشعل فتيلة الشك في قلب أمي لطيفة حين قال لها حانقاً ذات يوم جين حاصرته بالأسئلة: يا أمّي، يمكن أن نكون موجودين في نفس البار دون أن نعرف أو ننتبه. شيكاغو مدينة كبيرة تلتهم سكانها بضخامتها وأكبر منها أمريكا. ربما انتقل نور الدين إلى مدينة أخرى كما تزعم كارول، ربما مات في حادث أو ربما حتى مات مقتولاً! أتعرفين كم شخصاً يموت في الدقيقة في أمريكا بطلق رصاصي متعمّد أو طائش؟!"

والآن مات حبيب وربما مات معه سرّ أخيه. تواصلنا مع السفارة الأمريكية فأخبرونا بأن آخر معلومة مسجّلة لديهم عن نور الدين أنه شوهد كعامل في إحدى محطات البنزين بمدينة أريزونا سنة ١٩٨٢ ثم اختفى. لا أثر له في سجلّاتهم. واصلنا محاصرة حبيب بالأسئلة عند كل مكالمة حتى هدّد بمقاطعتنا. مرّت سنوات كثيرة دون أن نعرف شيئاً عن نور الدين حتى يئسنا ولم تيأس أمي لطيفة إلى أن اقترب منها الموت بخطى كبيرة وسريعة. نحفت حتى برزت عظام وجهها وظلت تسعل طيلة الوقت. اكتشف الأطبّاء وجود نقطة صغيرة في رئتها اليسرى وأقرّوا بأن لا أمل في شفائها. حدث هذا أواخر الثمانينيات وفي ذلك الوقت أصبح متوافراً في كل دار هاتف، اتّصلت بحبيب وقلت له بالحرف الواحد: "أمّك تريد رؤيتك قبل أن تموت، تعال. ربما تلحقها وربما لا. أمّك تقول لك لا تأتِ وحدك تعال أنت وأخوك. أرجوك جِده ولو من تحت الأرض يا حبيب." ماتت أمّي ولم يلحق بها لا حبيب ولا نور الدين. ماتت والحزن والشك يملآن قلبها. ماتت وهي تردّد "في قلبي نار لا تنطفئ". لم يتمكن حبيب من القدوم إلّا بعد أسبوعين من وفاتها.

٢

في اليوم الذي وصل فيه جثمان أبي، لم أذهب معهم إلى المطار وعدت إلى الفندق في بنزرت. دخلتُ إلى البار الذي كان مفتوحاً لحسن الحظ. تطلّع بي الساقي باستخفاف. كان الوقت لا يزال باكراً وكنت امرأة ووحدي... كنت أرغبُ في احتساء كأس أو اثنتين من الشراب الذي يجعلني أشعر بالخفة. كنت أعرف بماذا يفكّر وأشعر بالموعظة التي تحرق شفتيه كي يقولها لي. لكنني لم أهتم. قدّم لي بيرة باردة، بدلاً من النبيذ الذي طلبته. كنت أكره البيرة لكنني شربت أكثر من زجاجة حتى ثملت. فصعدت إلى الغرفة التي حجزتها قبل أيّام وظلت باسمي. قبل أن أصل إلى الحمّام تقيّأت ما شربته وجلست على الموكيت. ابتسمتُ لانعكاس صورتي على مرآة المدخل باستهزاء. ما زلتُ أذكر الشراب الساخن والسيّئ المذاق الذي شربته خلسة من قناني السيلتيا التي كان زوج أمّي يتركها مُبعثرة في الصالون. مثلما أذكر أول مرة اختلست فيها رشفات حذرة من زجاجة كُتب عليها بخط ذهبيّ كلمة شيراز. أذكر جيداً الدُوار اللطيف المصاحب للشراب، أذكره لأنه يشعرني بالخفة كلما شربته ويمنحني

الثقة العمياء بأنني إذا ما شئتُ قادرة على الطيران. كان عمري وقتها ثلاث عشرة سنة وكنتُ تعيسة. سألت أستاذ التاريخ والجغرافيا عن معنى كلمة شيراز، فأجابني وعيناه تلتهمان ساقيّ في الجينز الضيّق: "شيراز اسم مدينة في بلاد فارس. جيهان أيضاً اسم فارسي، أتعلمين هذا؟". أعجبتني نظراته لكنني كنت أفضّل أستاذ الفرنسية الفاتن بغمّازتيه وعينيه السوداوين برموشهما الكثيفة على أستاذ الجغرافيا بشفتيه المزرقتين من التدخين وعينيه الصغيرتين برموشهما القصيرة الشبيهة برموش الدمى. لم أتردّد كثيراً بمواعدة أستاذ الفرنسية. وكأنني كنت مُخيّرة حقاً. كان أكثر شيء تمنّيت وقوعه. كنت أكتب له جملاً من أغاني لارا فابيان على اللوح قبل بدء الحصة وأقحم في وظيفة الانشاء الفرنسية جُملاً من "أزهار الشرّ"، كتابه المقدّس كما كان يسمّيه. كان اسمه باديس وكنت أحبّه وأحب الفرنسية لأني أحبّه. وكاد يغيّر هذا الحب مسار حياتي وأتوجّه لدراسة الفرنسية.

أذكر جيداً موعدنا الأول. يومها انتظرني أستاذي وحبيبي بسيارته الكليو الرماديّة بعد إحدى الحصص الخصوصية التي يقدّمها لنا المعهد مجّاناً. قاد السيّارة ببطء ملاحقاً خطواتي إلى أن انعطفتُ في شارع شبه خالٍ فتجاوزني وفتح لي الباب من دون أن ينزل. قاد السيّارة بصمت وعند آخر الشارع، أوقف السيّارة وضمني إليه من دون كلمة. كان اسمه باديس وكان أستاذي ويكبرني بخمس عشرة سنة وكان رائعاً. كان حبّي الأول البريء، حبّي الجميل الذي لن يتكرّر. في ذلك اليوم البعيد، توقف الزمن في دقيقة ما بعد السابعة من مساء ذلك اليوم حين قبّلني قبلة خاطفة على شفتيّ المرتعشتين.

في السنة التي حملت فيها أمّي بطفلها الثالث كان عمري ثلاث عشرة سنة وكنتُ أتوارى في الظل أكثر. كنت مغرمة بالنباتات وبكل ما يخصّها، ولأنني كثيراً ما تمنيت أن أكون غير مرئيّة حاولت جعل نفسي نبتة ظل. كثيراً ما شغلت عقلي بتصوّر الحياة المُتخيّلة للنباتات. قرأت كثيراً عن حياتها ونموّها والتربة المناسبة لكل نبتة، وتخيّلتُ عالماً أخضر تتكلم فيه النباتات حتى إني ابتكرت لنباتاتي أصواتاً وحوارات وحكايات نقلتها على دفتر ما زلت أحتفظ به إلى الآن. في تلك السنوات وبينما كنت أحاول جعل نفسي نبتة غير مرئيّة كان أبي وطليق أمي غائباً عن حياتي. كان حبيب إلياس خارج تراب أيّامي وكنتُ شتلة نبتة تُنقل من تربة إلى أخرى، أعيش أشهراً عند جدّتي لأمي وأشهراً أخرى عند أمّي وزوجها. كنتُ نبتة تكتفي بإنتاج الكلوروفيل وتنمو بصمت.

حين أعلنت أمي في الشهر الرابع من حملها أنها حامل بصبيّ تغيّر زوجها وأصبح لطيفاً أكثر من العادة، يعود مباشرة من العمل ويعود إلى البيت باكراً ليالي السبت والأحد. يجلب لنا هدايا صغيرة، شوكولاتة محلية الصنع يغلب فيها مذاق السكّر على مذاق الكاكاو، أعداداً من مجلات *Jeune et Jolie* يلتقطها لأجلي من بسطات الكتب المستعملة، لعباً بلاستيكية سريعة الكسر وقطع بازل للتركيب لأختيّ غير الشقيقتين. أصبح يشرب في البيت بدلاً من حانات شارع سيسيليا. تُعدّ له أمي الجلسة وهي تغنّي إحدى أغاني عُليّة التونسية، تضع مفرشاً أبيض على الطاولة، ترتّب صحناً باللوز المُحمّص وآخر بشرائح الجبن، تضع من فاكهة الموسم وتنصب زجاجة الشيراز أو

الويسكي وسط المائدة تماماً، وحين تسمع صوت المفتاح في الباب توقد الشمع. تُقبّله خلسة عنّا نحن الأطفال. كنت أتلصّص عليهما من وراء الباب المُوارى فأرى أمّي تُقرب وجهها المُنتفخ بسبب الحمل وتقبّل زوجها بنهم بينما يحتضنها هو برقة متحسّساً بطنها بيديه.

مع تقدّم أمي في الحمل شعرتُ بالهواء يصبح ثقيلاً ومشحوناً في البيت. كلما دخلت قاعة الجلوس انتبهت لهما يقطعان خيط الكلام بينهما فيسكتان. لم أعرف السبب إلى أن حصل ما حصل في ذلك اليوم. وصلني صراخهما من الشارع وتطايرت شظايا الكلمات التي تراشقا بها في وجهي وأنا أدلف للبيت: "دعيها تنام مع شقيقتيها في غرفتهما أو تنام هنا في قاعة الجلوس". وقفتُ مذهولة على عتبة الصالون. كان زوج أمّي يريد تخصيص الغرفة التي خصّتني بها أمي للطفل الذي لم يُولد بعد. ماتت الكلمات على شفتيّ. كل هذا الصراخ بسببي أنا؟ كان هو عارياً سوى من شورت أسود زاد سواده من إظهار شحوب بشرته وكانت هي في فستانها البيتي الواسع الشفاف تتحرّك بثقل محاولة أن تُبعد عنها جسده المُهدّد. حاولَت أمي إرجاء اللحظة التي سيرفع فيها يده ويصفعها. ربما لم تصدّق أنه قادر على فعلها. دخولي في تلك اللحظة حرّك الدماء في عروق يده فهوى على خدّ أمي. "يا ساقط تضربني؟ ماكشْ راجل" صرخت أمي. حدث كل شيء بسرعة بعد قولها تلك الجملة. لم تستطع أمّي سحب الكلمات وراحت تكرّرها دون توقف، "يا ساقط تضربني؟ ماكشْ راجل". ازداد غضبه ودفعها على الأرض وبدأ بركلها بقدميه. سقطت أمي على ظهرها وارتفع بطنها كبالون صلب يعجز عن الطيران. استلقت

أمي هناك أمامي على الأرض عاجزة عن النهوض، تئنّ وتصرخ "يا كلب يا سوكارجي". شعرت بالرعب يقيّدني مكاني. كنت أنظر إلى ما يحدث دون أن أتجرّأ على اجتياز عتبة الباب. كأن دخولي للصالون سيؤكد أنني السبب الحقيقيّ لما يحدث. تراجعت ملتصقة بالحائط خلفي. تحاشى زوج أمي النظر إليّ وساعدها على النهوض آمراً إيّاها بالصمت وأخذها إلى الطوارئ.

كانت في أول الشهر الثامن وضغطها الذي ارتفع فجأة تحوّل إلى خطر عليها وعلى الجنين. أجروا لها ولادة قيصريّة خلال يومين ووُلد الطفل قبل موعده. الولادة القيصرية والطفل النائم تحت الغطاء الشفاف للحاضنة جعلا أمّي تنتصر في تلك الجولة وبقيت الغرفة لي ونُصب مهد الطفل في غرفة نومهما.

عودة أمي من المستشفى عرّضت البيت للاجتياح. سيطرت خالاتي على البيت. طبخن لأمي وصفات عجيبة لا تليق بحرارة الصيف، غلين لها الحلبة المُرّة وأمرنها بشربها على الريق وقبل وقت من إرضاع الصغير. أعددن لها شوربة بالدجاج العربي. "لا تجلب دجاج الماكينة" أمرته خالتي مها بتسلط، "لا فائدة ولا فيتامينات به". أعددنا لها "الزرير" من السمسم وعسل الإكليل. قسّمن المهام بينهنّ بالتساوي، خالتي مها التي أخذت دروساً في التمريض في شبابها نظفت يومياً جرح العملية القيصرية وغيّرت الضمادة. بعد شهر، تلصّصت عليهن ذات صباح من خارج غرفة نومها، ثبتّ أربع قطع آجر بعضها فوق بعض تحت النافذة وصعدت عليها لأشاهد ماذا يفعلن. ربطن اللحاف بإحكام حول خصر أمي وشددن عليه بقوة.

خالتان قامتا بالمهمة، وقفت واحدة من اليمين والأخرى من اليسار ثم سحبت كل واحدة من جهتها طرف اللحاف بقوّة. فعلن هذا كي ينكمش الرحم ويستعيد حجمه الطبيعيّ. تتهامس خالاتي بينهن بكل ما يخص شؤونهن. لم نكن نسمع نحن الصغيرات سوى بعض الكلام مثل رذاذ ماء يبلل شفاهنا ولا يروينا. كانت خالاتي يتهامسن بتفهّم في ما بينهن من وقت إلى آخر حين تكون الواحدة منهن شاحبة ومتوتّرة "دعوها وشأنها. إنها مثل أمّها". لم أعرف المعنى الحقيقيّ لوصف "مثل أمّها" إلى اليوم الذي وجدت فيه على تبّاني لطخة دم داكنة، فذُعرت. لم أشعر بالألم القاتل الذي حدثتني عنه صديقاتي اللاتي سبقنني لاكتشاف الدم حتى شككت في المسألة كلها. وحين سألت صديقتي هدى عن بقيّة العلامات التي تتأكد بها الواحدة من أنها أصبحت حقاً "مثل أمّها" ما عدا ألم الظهر والدم المنساب فجأة، دُهشت هدى ثم ضحكت حين فهمت أنني أتحدّث عن الدورة الشهرية. لم أعرف قبل ذلك اليوم أن "مثل أمّها" وصف خاصّ بنا نحن فقط نساء العائلة. ظننتُ أن كل الفتيات يستعملن هذا الوصف. وأخيراً أصبحت كبيرة. تلك اللطخة كانت أول خطوة لي نحو عالم الأنوثة. بفخر وحذر بدأت بإخفاء الفُوط الصحّية في حقيبتي. كنت أظنّ أن عيون الناس في الشارع تخترق حقيبة ظهري لترى ما أخفي بداخلها، فوط "النانا"، قلم الكحل وقلم الحمرة اللذين سرقتهما من أمّي ودفتري الذي أسجّل به يوميات الحياة المتخيّلة للنباتات.

خالاتي أيضاً ومعهنّ أمي لم يفسّرن لي جيداً حكاية "التصفيح" فظننتُ أن كل الفتيات مثلي مُصفحات وممنوعات من أكل الزبيب

إلى أن يتزوّجن فيستعدن حرّيتهن في أكل الزبيب. حصل هذا حين بلغت سن العاشرة وقد تكوّر نهداي مثل خوختين تتركان أثر تشكّلهما على قمصاني القطنية. في ذلك اليوم البعيد حدثتني خالاتي بكلمات لم أفهمها جيداً. حدّثتني كل خالة بطريقتها عن ضرورة حمايتي من الذكور، وشبّهن الرجال بالذئاب. "سيلهث الرجال خلفك الآن بعد أن تكوّر نهداك وأصبحت صبيّة". "لو تزوّجتِ الآن لأنجبت الصغار" قالت يومها خالتي هند الشبيهة بليلى علوي بعد أن قرصتني بلطف من نهدي الأيسر وضحكت. وألهتني أمّي بقراءة صفحة الحوادث في إحدى الجرائد. أردت أن أقول لأمي إنني حفظت الصيغة المُعتمدة في كل الجرائد: "استدرج المتهم المجنيّ عليها وحوّلها عن وجهتها وسلبها أعز ما تملك".

ألهينني بكلامهن وبكلام الجرائد، قبل أن تعلن خالتي صالحة بثقة "لا تخافي سنصفّحك ولن يتمكن أيّ ذكر من إغوائك". وزعت أمّي كؤوس الشاي باللوز الأخضر وكنتُ لوزة طريّة بينهنّ. أوكلن المهمّة لكبيرتهن مها. نزعت خالتي عن شفرة حلاقة جديدة غلافها الأزرق الرقيق. وبيد ثابتة خطّت سبعة خدوش بالكاد تدفق منها الدم. لم يكفني الوقت لأتألم فقد كانت يدها سريعة. خطت سبع خطوط رقيقة على فخذي اليسرى ثمّ غمست حبّات الزبيب في قطرات دمي القليلة. "ردّدي ورائي سبع مرّات يا جيهان هذه الجملة"، قالت خالتي صالحة: "أنا حيط (حائط) وولد الناس خِيط (خَيْط)".

لا أعرف إن قلت الجملة سبع مرات أو أخطأت في العد لكنني تفانيت في تكرار الجملة طمعاً في دخول عالمهن الغامض، عالم

الهمسات والكلمات المُشفّرة، عالم الزبيب المغمّس في الدم. وحين سكتُّ أخيراً أعلنت خالتي صالحة بثقة: "أصبحتِ الآن حائطاً صلباً، سدّاً لا يُخترق وأيّ رجل سيقترب منك سيصبح خيطا ليّناً ينثني أمامك ولن يطالك".

أما خالتي مها فأنهت ضحكتها لنكتة همست بها خالتي هند: "من اليوم فصاعداً عليك أن لا تأكلي الزبيب أبداً يا جيهان إلى أن تتزوجي. وسوف أفكّ عنك هذا الربط قبل زفافك بيوم كي تسهل مهمّة زوج المستقبل".

لم أعرف يوماً كيف كانت خالتي مها ستفكّ عني هذا "الربط" لأنني في سنتي الأولى بالجامعة وفي سهرة من سهرات نهاية الأسبوع ألقيتُ بحفنة من الزبيب الأسود في فمي بينما كنت أشاهد مع حبيبي فيلماً يُعرض للمرة الألف على القناة الوطنية. ثم تناولت المزيد من العنب المجفف قبل أن نغلق التلفزيون وننام.

٣

صبيحة الدفن، اجتمعنا حول جسد أبي المُسجّى في غرفة المعيشة. جلست صوفيا في الصدارة وبجوارها دلال وجلست عمّاتي بجوارهما بينما انتشرت المُعزيات على كراسيّ بلاستيكية بيضاء أُجّرت للمناسبة وقد صُفت على امتداد الجدران. جلستُ على أحد المقاعد الشاغرة وشغلت نفسي بالنظر إليهنّ مُتجنّبة النظر ناحية صوفيا. كانت وجوه بعض النساء مألوفة لديّ، استمعت إليهن يُقدّمن تعازيهن ويُصبّرننا بحرارة مبالغ فيها. تساءلت عن قرابة أبي بهنّ وإن كان حزنهن حقيقياً. كانت دلال في حالة غياب كاملة وكأنها في مكان آخر. كانت شخصاً غريباً بالنسبة إليّ. حين وُلدت ودفعت برأسها نحو العالم وخرجت، لم يهمّني الخبر أو يؤثر بي. كنت منغمسة في عالم النباتات تماماً، أخرج إلى الغابة في منطقة "قنقلة" كلما وجدت فرصة لأجمع النباتات والفطر المنتشر هناك. مشاعري مُشوّشة نحو دلال. حين علمت بقدومها للجنازة، تساءلت عن شكلها وعن شخصيتها. فكرت أنها ربما كانت تشبه أبي في الشكل أو في الشخصية وربما في الاثنين وفكرتُ أننا ربما نمتلك بعض

الملامح أو الصفات المشتركة، أكثر ممّا أمتلك أنا وأخواتي من أمّي. حين أنظر إلى دلال ألاحظ شبهاً غامضاً يربطها بأبي، شبهاً لا أستطيع تحديده. كان التشابه في الملامح والجسد، العمل الجليّ للوراثة، النتيجة المُجسَّدة لتزاوج الكروموزومات بعد تمازجها تقدّم تشكيلة مشابهة للأصل أو مُحوّرة بدرجات متفاوتة.

عكسها كانت أمّها صوفيا متماسكة تنبعث منها هالة من كبرياء. كانت أنيقة كما عهدتها وحافظت على نفس قصّة شعرها الغلامية. انتبهت إلى أنها لم تخلع معطفها المصنوع من فرو بنّي فاتح يتماشى مع لون شعرها. ومثلها فعلت بقيّة النساء في الغرفة ولم يخلعن معاطفهن. كان جهاز التدفئة معطوباً على ما يبدو. كانت هناك نساء لم يسبق لي أن التقيت بهن ولا أعرف صلة القرابة التي ربطتهن بأبي. لم يكن من اللائق أن أسأل عن هويّاتهن كما لم أكن مهتمة بالتعرّف إليهن فعلياً. لكنني تضايقت من تهامسهن وكأنني كنت غير مرئيّة. انفلتت كلماتهن وسمعتها بوضوح، حين غادرت عمّتي مريم الغرفة لسبب ما وكأن حضورها كان يلجمهن عن الكلام بصوت مرتفع. تحدثن كأنني لم أكن موجودة وأسمعهن "أجل، أجل هذه ابنته من المرأة الأولى، البنت الصغرى تلك الجالسة على يسار أمها." "هذه مسكينة ربيبة." "ربّاها زوج أمها." "لم يهتم حبيب لأمرها، مع ذلك البنت أصيلة قدمت وحضرت مأتمه."

حين اقترب موعد إخراج أبي أعلنت عمّتي نعمة "حان الوقت، سيحمله الرجال إلى الجامع الكبير". شجّعتني عمّتي مريم قائلة "هيا يا جيهان قبّليه". عصفت بي مشاعر متناقضة وأنا أقترب من جسد

أبي. نظرت إلى وجهه الساكن وشفتيه المزرقتين قبل أن أنحني وأقبّله على جبينه. اهتزّ جسدي بشهقات عنيفة قبل أن أخبط على صدره وأصرخ "تركتني مرة أخرى يا بابا."

سار موكب الجنازة ببطء في نفس سيارة الإسعاف التي جلبته من المطار. ردّد اسم أبي الميّت رجل جلس بجانب السائق مستعملاً مكبّر الصوت. أحاط الرجال بالسيّارة من كل صوب مُكبّرين. ومشينا نحن النساء ببطء وقد تركنا مسافة كافية تفصلنا عنهم. كانت الفكرة فكرة أختي غير الشقيقة. أرادت دلال حضور دفنه. عمّتي مريم المُتحفظة عادة نظرت إليّ ونظرنا الى صوفيا وبتواطؤ لن يتكرّر بيننا نحن الثلاث قرّرنا تنفيذ رغبة دلال والسير في الجنازة.

يقول الناس في بلادنا إنه لا يجوز أن تمشي النساء في الجنائز. عيب. حرام. لكننا تجرّأنا على كسر هذه القاعدة. مشينا على مسافة قريبة من موكب الجنازة محاذرات أن ينتبه لنا الرجال. انتظرنا في الشارع انتهاء المُشيّعين من الصلاة على الميّت في الجامع الكبير ثم لحقنا بهم خلافاً لعادات المدينة وسُنن الجنائز. خرج الرجال حاملين النعش على أكتافهم ثمّ تلاهم بقيّة المشيّعين.

كانت المقبرة تقع في الجزء الشرقي من المدينة وتحيط بقبورها أشجار الكلتوس والسرو من كل جهة. اعتاد الباعة الوقوف أمام بوابتها الأمامية بفجاجة خاصة يوميْ الوقفة والعيد، منادين على بضاعتهم من البخور والمسابح وربطات العطرشاء التي تباع كي توضع فوق القبور. من حسن الحظ أنه لم يكن لهم وجود في ذلك الصباح.

حين بدأوا بإهالة التراب فوق أبي اندفعت دلال نحو القبر المحفور حديثاً بينما تسمّرنا في مكاننا. وقبل أن تتحرّك أو تبدي واحدة منا ردّة فعل أمسك رجلان بها من ذراعيها وأبعداها بلطف عن القبر... "عيب عيب با بنتي، النساء لا يحضرن الجنازات" قال أحدهما. بينما قاومت هي باستماتة محاولة العودة إلى القبر. استنشقتُ رائحة عشب جُزّ حديثاً ونظرت حولي إلى الأشجار العارية الأغصان وإلى نبات القُريص المنتشر بين القبور فشعرتُ بالوحشة وانسابت دموعي وأنا أنظر إلى أبي يُوارى تحت التراب.

٤

كانوا يهيلون التراب على جسد أبي، عندما استرجعت ما حدث في الصيف الذي تزوّجت فيه أمي وخسر فيه أبي حضانتي. بدأ كل شيء في يوم قائظ من أيّام أغسطس، كنت أسقي النباتات في حديقة جدتي ربح بخرطوم ماء بلاستيكي ومن وقت إلى آخر أطرطش الماء على الإوزات التي كانت تجول بحُرّية في ممرات الحديقة. سمعت صوت توقف سيّارة أمام البيت وصوت المكبح يُرفع. اندفعتُ دون تفكير وفتحتُ الباب الخارجيّ قبل أن يضغط الرجل الواقف وراء الباب على الجرس. انحنى أبي ورفعني. عانقني وقبّلني. شممت رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي يستعمله. لم يدم عناقه لي طويلاً، قطعه صوت غير مرحّب: ما الذي تفعله أنتَ هنا؟

صرخت جدتي في وجه أبي بكلمات كثيرة، نعتته بالكلب والجاهل وبقليل الأصل وأقسمت بأنها ما دامت على قيد الحياة فلن تسمح له بأخذي، وهدّدته بأنها ستمنعه من رؤيتي إن لزم الأمر. وقفت في الظل أبكي بعدم فهم بعد أن دفعتني جدتي للداخل وأمرتني بالبقاء داخل غرفتي.

في الصيف الذي تزوّجت فيه أمي، كان عمري عشر سنوات، وكنتُ واعية لما يحدث حولي بما يكفي لأفهم أن أمي كانت العروس التي ستجلس في صدارة الحفل. ولطالما تساءلت لماذا تأخّرت أمّي تسع سنوات لتعاود الزواج. ربما أملت انصلاح الأمور بينها وبين أبي.

أتذكر السهرات التي سبقت حفل العرس، أتذكر الأغاني الشعبية المُوقعة بالزغاريد وتغامز النساء في ما بينهن، رائحة البخور الخانقة وملمس الحناء على كفيّ ورقصنا نحن الصغيرات وتباهينا بأساورنا وخواتمنا البلاستيكية الملوّنة. أنا أيضاً ارتديتُ أجمل فساتيني ورقصتُ في العرس... دللتني أمي كثيراً في تلك الأيام، أمّا جدتي الحريصة على معرفة أماكن وجودي في العادة فغضّت النظر عن الوقت الذي أقضيه في الشارع ولم تدقق أين ومع من كنت ألعب. انتقلت أمي إلى بيت زوجها وتركتني عند جدّتي رِبحْ. كانت أمّي عروساً جديدة وكنتُ الابنة التي يجب أن تتوارى في مكان ما كي لا تربك إناء العسل.

لم أنسَ يوماً صيف ذلك العام لأن أبي أراد فيه استعادة حضانتي. لكن جدّتي ربح وقفت أمام أبي مثل الشوكة في المحكمة وكسبت أحقيّة حضانتي حتى أبلغ من العمر أربع عشرة سنة. بعد يومين من خسارته حق الحضانة، طرق أبي باب جدتي ربح، استمع لشتائمها بصبر ثم دعانا إلى مقهى "مشموم الفل" في بنزرت. كانت أول وآخر مرّة أخرج فيها بصحبة أبي. حدثني يومها أبي عن البحر الأبيض المتوسّط وعن السفن التي عبرت بين ضفتيه بينما جلست جدتي ربح

تستمع متأففة. حدّثني عن بلدان قصيّة تتحقق فيها الأحلام بسهولة فتخيّلت الأحلام التي يتحدث عنها مناطيد مُلوّنة تحلق في السماء. أخرج قلماً كان مرشوقاً في جيب قميصه العُلوي ورسم على أحد المناديل الورقية خريطة العالم. رسم تونس وفوقها أوروبا كما رسم شكلاً مبهماً لبلد اسمه أمريكا وقال لي بعينين تبرقان "هنا أسكن وهنا حققتُ أحلامي... هل تريدين السفر معي؟"

قاطعته جدتي ربح بحدّة: دع الطفلة وشأنها. ستحرم منيرة من ابنتها وستحرمني أنا من حفيدتي. أين كنت في السنوات الماضية؟ اليوم تذكّرت أن لك ابنة وتطالب بحضانتها.

لم يجبها أبي وطلب شراباً بارداً لكليهما ومثلجات لي. أتذكر صوته وهو يقنعها بأن مستقبلي سيكون أفضل إن أخذني معه إلى أمريكا. كلما تذكّرت ذلك اليوم شعرت بالدهشة لأنني رغم صغر سني أدركت يومها أن جدتي وأبي كانا يتصارعان بسببي، كل واحد منهما أراد الاستحواذ على حضانتي.

"دعينا نجرّب، دعيها تقضي معنا بضعة أيّام أنا وصوفيا واتركي لها فرصة للاختيار، ربّما انسجمتا معاً". قال أبي بتسامح.

لا أعرف كيف رضخت جدّتي ووافقت، ربما أثرت فيها كلمات أبي عن الأحلام وتحوّلت إلى مناطيد ملوّنة في خيالها أيضاً، ربما نظرت إلى وجهي حين سألتُها بحماسة: هل أستطيع الذهاب يا جدتي؟

كان أبي وزوجته يسكنان في الطابق الثاني من بيت يتكوّن من ثلاثة طوابق. كانت رائحة البيت شبيهة برائحة الفانيليا وكان كل

شيء يلمع في البيت، البلاط والأثاث وأسطح المطبخ والطاولات. كانت صوفيا مهووسة بالنظافة حتى إنها غطت الفرن بأكمله بأوراق الألومينيوم كي يسهل تنظيفه.

اقتربت منّي صوفيا تسبقها رائحة عطر قوية مُدوّخة. تسارعت دقات قلبي وخفت منها. قبّلتني على وجنتي ورحّبت بي بحرارة. قضيت معهما ثلاثة أيّام، مضى فيها الوقت. تصرّفت صوفيا معي بلطف مبالغ فيه ولازمتنا أنا وأبي طيلة الوقت فلم أجلس أو أخرج وحدي معه مرة أخرى ما جعلني أشعر بالاستياء والإحباط. لم أتخيّل حياتي معهما وبقائي معها وحدي في نفس الغرفة إذا ما خرج أبي أو ذهب إلى عمله. شعرت بالاختناق ولم أعرف كيف أشرح هواجسي لأبي. لكن دموعي تكفلت بهذا في اليوم الثالث والأخير. انفجرت بالبكاء دون سبب وقلت لأبي أريد العودة إلى بيت جدّتي رِبح.

بعد صيف ذلك العام لم يزرني أبي أو يسأل عني.

٥

في الأيام التي تلت الجنازة، حاولت ترتيب حكاية أبي وأخيه داخل عقلي. كنتُ كلما تلبّست عليّ الحكاية، أفتح الكاناويطة وأفرد كل ما فيها من صور ورسائل أمامي على الطاولة. أتأمّل وجه كارول حين كانت صبيّة بنمش وجنتيها وعينيها الناعستين. كانت توحي بالرقة والثقة، ثم أتذكّر شريط الفيديو الذي شاهدته في غرفة أبي فأحتار. أتأمّل وجه عمي نور الدين الوسيم في الصور وأتخيّل التماعة الرغبة التي توهّجت بينهما، أتخيّل كيف سحبت كارول نور الدين من يده والتصقت به. أتخيّل كيف رفعت رأسها ونظرت إليه فذكّر نفسه للحظة بوصايا أمّه بيّة "ابتعد عن الروميات الشيطانات"، قبل أن يقبّلها بشفتيه بعنف ولهفة المبتدئين.

وجدت كارول بسهولة في الفايسبوك. قبلت طلب إضافتي لها في نفس اليوم. أصبحت امرأة مختلفة. لم تعد تشبه كارول الموجودة في الصور. أصبحت أكثر امتلاءً وصبغت شعرها بالأشقر الرمادي لكنها احتفظت بنفس الموديل من النظارات. بعد أن أضفتها بدأت أخطط لأسلوب لطيف وحذر أسألها به عن حكايتها مع الأخوين وعن سرّ

اختفاء نور الدين. أصبحت أفكر فيها بنفس المقدار الذي أفكر فيه بأبي وبحياته الأمريكية المجهولة. تخيّلت كارول تجلس وحدها كل مساء مقلّبة ألبوم الصور بينما ترتشف نبيذاً خفيفاً وحين تشعر بالملل تفتح نافذة على الجهة الأخرى من العالم عبر صفحتها على الفايسبوك. تضيف أقرباء وقريبات ابنها الذين توزعوا في مختلف أصقاع العالم وتتلصّص على حياتهم. هذه المرأة تشعر بالوحدة والملل، هكذا فكرت كلما رأيتها أونلاين تكتب تعليقات هنا وهناك على صفحاتنا نحن أقرباء ابنها المجهولين. لم يسأل ابنها إيريك عنا يوماً ولا اهتم بوجودنا، حتى إنه رفض دعوة صداقتي له على الفايسبوك. لكنني يوماً بعد يوم، تفهّمتُ ضجر كارول وفضولها الغريب لتقصّي مصائرنا وتفاصيل حيواتنا، فأنا لا أتخيّل حياتي وحدي في سن السادسة والستين. تفهّمتُ فضولها وتلصّصها على حياتي وحياة بقيّة أفراد العائلة. ولكنني لم أفهم ادّعاءاتها بعد كل هذه السنوات، مرّة تدّعي أن نور الدين التحق بالمقاومة الفلسطينية في لبنان أواخر السبعينيات، ومرة تقول إنه انتقل إلى ولاية أخرى بعد طلاقهما دون ترك أيّ أثر يقود إليه. "ربما ذهب إلى أريزونا أو كاليفورنيا". تكتب لي ثم تخرج فجأة من المحادثة. واليوم مثلاً ومن دون أن أسألها عن الموضوع، كتبت لي "لقد خانني نور الدين مع صديقتي المُقرّبة ولهذا انفصلنا ولم أبحث عنه حين اختفى".

لم أعد أعرف أيّ نسخة من الحكاية أصدّق، نسخة كارول أم نسخة عمتي؟ أعتقد أن كارول تخفي شيئاً ما. أحاول قراءة وجهها من خلال الصور في صفحتها الشخصية لكنه يتلبس عليّ. أعيد قراءة

محادثاتنا على الفايسبوك وأجمع كل ما لديّ على الطاولة أمامي عساني أفهم، ثم أسأل نفسي ما الذي أبحث عنه بالضبط وما الذي أريد إثباته... القصة حدثت وانتهت وأبي مات ودُفن ودفنت معه حكايته. وإن لم تحدّثني كارول بالحقيقة من تلقاء نفسها فلن أعرف حقيقة مصير عمي نور الدين. أحياناً أفكر بأنها تجهل مصيره وأشعر بأنها تتسلى وتتلاعب بي.

أعدت ترتيب الحكاية أكثر من مرّة. في ستينيات القرن الماضي تنتقل كارول البولندية التي عاشت ودرست الفنون في باريس إلى شيكاغو، وهناك تلتقي بالأخوين. التقوا في البلاد التي يلاحق فيها البشر "الحلم الأمريكي". يقدمون من مختلف بقاع الأرض، يمشون في بلدانهم حالمين بفرصة العمر، وحين يرفعون رؤوسهم ويلمحون ولو طرف سحابة تمضي بعيداً يلاحقونها بعناد. هكذا التقى نور الدين كارول حين لاحق سحابته وكانت قد لاحقت سحابتها ووصلت قبله إلى أمريكا. اصطدمت السحابتان فتحوّلتا إلى غيمة ممطرة والتمع برق في سماء شيكاغو. هكذا كنتُ أتخيّل بداية حكايتهما قبل أن أقرأ رسائل "الكاناويطة" وأعرف أن أبي كان الضلع الثالث من مثلث حكايتها، كان القاعدة الأساسية لحكايتهما ولولاه لما التقيا.

أقرأ رسالة كارول الوداعية. أتأمّل حروفها الصغيرة الشبيهة بطابور من النمل الأزرق يمضي أفقياً على الورقة. في الرسالة تسأل كارول عن أمّي لطيفة وجدّي حمّادي وعن عمّاتي وتعلمهم بصيغة متأسفة عن طلاقهما وتعلمهم أنها بالرغم من الانفصال ستزورهم مع الطفل صيف السنة المقبلة كما سبق أن خططت. أقلب الصور مراراً وتكراراً

وأمرّر أناملي عليها. يعجبني ملمس الورق الذي طُبعت عليه. أعيد قراءة الجملة التي كتبها نور الدين على ظهر كل صورة بنفس الخط المائل الأنيق "إلى عزيزتي مريم وعائلتها".

أنظر إلى صورة كارول وأشعر بالضيق والحيرة فأنا لا أستطيع فهم هذه المرأة حقاً. أعلم أنها تزوجت ثانية ولا أعلم شيئاً عن زوجها الثاني سوى أنها أنجبت منه طفلة اسمُها ليز. أعلم أنها تعيش وحدها وأن ولديها إيريك وليز يعيشان في ولايات أخرى. كثيراً ما تخيّلتُها تقضي أمسياتها في قراءة روايات تاريخية مُطعّمة بقصص حب مستحيلة بين يهوديات جميلات ونازيين مرهفي القلب. أيّ نسخة من الحكاية أصدّق؟ أصدّقها أم أصدّق عمّتي مريم؟ هل خانها عمّي حقاً أم خانت أبي مع عمّي؟ أم كانا صديقين وحسب؟ بعد أن أضفتها وعرفت هويّتي كابنة حبيب، عزتني بحرارة وكتبت لي حرفياً ومن دون مقدّمات "لقد كان والدك يعاني من سرطان البروستات، لكنه لم يُحدّث أحداً غيري بمرضه" صدمني كلامها "ولكن أبي مات بأزمة قلبية؟؟؟" كتبت لها مصدومة وغير مصدّقة. "أجل... هذا لا ينفي أن الطبيب شخص إصابته بسرطان البروستات قبل شهرين من وفاته."

٦

بسبب الظروف الأمنية المضطربة قضيت الأيام التي تلت الإعلان عن الوصيّة في بيت عمّتي مريم التي رفضت السماح لي بالمغادرة. مضت سنوات طويلة منذ قضيت وقتي مُتبطّلة من دون القيام بعمل ما. لأحسم أمري وأقرّر ما الذي يجب عليّ فعله، كنت أمشي في الصباح من طرف المدينة إلى طرفها، مقلبة أمر الوصيّة في رأسي. مررت أكثر من مرّة أمام البيت ورأيتُ كيف سوّرته صوفيا بالأسلاك الشائكة كما جعلت أحدهم يرش قطع زجاج مُسنّنة على امتداد الحيطان. أخبرتني عمّتي مريم بأن أغلبية الناس فعلوا مثلها نتيجة لعدم إحساسهم بالأمان وازدياد السرقات بصفة مرعبة، خاصة بعد اليوم الذي فُتحت فيه وفي نفس الدقيقة أبواب كل سجون البلاد من شمالها إلى جنوبها. عند الساعة السابعة بالضبط من مساء ذلك اليوم، تحرّر عشرات ومئات المساجين، مساجين السرقات الصغيرة والخصامات، مساجين الزطلة وجرائم العنف، مساجين الرأي العام وجرائم القتل، حُرروا كلهم وتهامس الناس بأنّ للحجامة[١] يداً في العملية.

---

١ إشارة إلى ليلى زوجة الرئيس السابق.

فكّرت طويلاً في الجزء التفصيلي من الوصيّة الذي لم تسمعه صوفيا بعد أن خرجت حانقة من مكتب المحامي. قام أبي بعملية مبايعة بينه وبين عمّتي مريم. ويجب على عمتي عند وفاته أن تعيد بيع البيت لي وتسجيله باسمي كي يصبح ملكي رسمياً، حيث لا يوجد توريث عبر وصية في القانون التونسي. في الأيام الماضية كنت أتهرّب من عمتي كلما قالت لي يا ابنتي هذا حقك هيّا لنذهب ونسجّل البيت باسمك في "الإشهار العقاري" وتستلمي حقك.

حسمت أمري اليوم بعد مرور أكثر من أسبوعين على موت أبي ودفنه. سأعود إلى العاصمة، إلى حياتي وعملي وأترك هذه الهديّة المسمومة ورائي. أخبرت عمتي بقراري "لا أريد البيت يا عمّتي... يمكنك الاحتفاظ به، تقاسمه مع صوفيا أو حتى منحه لها، يمكنك أن تفعلي به ما تشائين". لم أصغِ لاعتراضاتها وقبّلتُها مودعة وأنا أكرّر أن هذا هو قراري النهائي ولا رجعة فيه.

كان الطريق السريع نحو العاصمة خالياً وحواجز نقاط الاستخلاص مرفوعة ولا وجود لأيّ موظف وراء زجاج الأكشاك المُخصّصة لاستخلاصِ تعريفة المرور. كان المشهد سريالياً... قدت سيارتي وحدي معزولة عن العالم والبشر. لو حدث أن خرج قنّاص أو واحد من قطاع الطرق الذين انتشرت حكاياتهم في الفترة الأخيرة، فلا نجاة لي. تحدّث الناس في ما بينهم عن انتشار القنّاصة وقطاع الطرق الجدد الذين استغلوا الفوضى ونصبوا حواجز مُرتجلة من أكياس الرمل لإيقاف مستعملي الطرقات الخارجية. فتحت الراديو وقدت بسرعة مئة وعشرين كلم في الساعة. كان الخوف يدفعني للإسراع، لم أفكر أو

أهتم بالرادارات أو المخالفات التي سأحصل عليها لتجاوزي السرعة. شعرتُ كأنني داخل فيلم تجاريّ من الدرجة الثانية عندما يستيقظ البطل ويجد العالم انقلب رأساً على عقب. قدت سيارتي في طريق خالٍ. ما من شاحنات بضائع عملاقة مرّت بجانبي، ما من سيّارات سرفيس تحمل ركّاباً تجاوزتني، وما من وجود للرعاة بخرافهم الذين اعتدت رؤيتهم يرعونها في الحقول الممتدّة على جانبي الطريق. شعرت بأنني كنت وحدي في هذا العالم... أوقفت السيارة وركنتها بعيداً عن الطريق الإسفلتي، تناسيتُ خوفي من قطاع الطرق المحتملين. ووقفتُ هناك على حافة الطريق السريع تحت سماء ديسمبر الشاحبة الزرقة وصرختُ إلى أن استنزفتُ طاقتي على الصراخ. كان هذا التمرين الذي ينصحني به طبيبي لأتحرّر من الضغوط والتوتر... استأنفت قيادة سيارتي بعد أن أدرت مؤشر الراديو مُقلبة القنوات عساني أستمع لنشرة أخبار أفهم منها ما يحدث في البلاد. تحدّث مُذيع بصوت خافت عن إحراق مجهولين لقبر الطاهر الحداد واصفاً القبر المُسودّ وعدم وجود شهود عيان لما حدث. صدمني الخبر وأحزنني. تساءلت من هو هذا الشخص المريض الذي قد يفكّر بحرق قبر الحدّاد وما هي الرسالة التي يريد أن يوصلها إلى الناس بفعلته. تمنّيتُ أن تفتح الدولة تحقيقاً بخصوص هذه الجريمة. وكأن ناراً واحدة لم تكن كافية في نشرة واحدة، أضاف المذيع خبراً ثانياً عن حادثة وقعت في إحدى المدن حيث أضرم أب النار في ابنته المراهقة لأنه رآها تمشي مع زميلها في الشارع. واختتمت النشرة بخبر ثالث عن شاب ثلاثيني ألقي عليه القبض بتهمة إحراق والديه. مذهولة رفعت صوت الراديو كي أستمع لإفادته الصوتية المُسجّلة بعد إلقاء

القبض عليه: "فعلت هذا حُبّاً بوالديّ. لم يطاوعني قلبي حين نظرتُ إلى الشقوق في باطن قدميْ أمي المتيبّستين فاقتربت من قدمي أبي وضغطت بحركة سريعة على الولاعة. فاستيقظ وأيقظ أمي بصراخه. واظبت على فعل هذا يومياً كي يستيقظا لصلاة الصبح إلى أن قدّما شكوى ضدّي. لم يفهما أنني أحبّهما ولا أريد لهما أن يدخلا جهنّم."

"ولكن لماذا أشعلت النار في قدميهما؟ ألم يكن كافياً أن توقظهما بلطف؟" كرّرت المذيعة سؤالها مرّتين قبل أن يجيبها الرجل ببساطة "فعلت هذا ولم يستجيبا فلم أجد سوى هذا الحل الجذري."

أطفأت الراديو بعصبية وشغلت بدلاً منه أسطوانة أغان لأمينة فاخت عساني أخفف من شعوري بالقلق حيال ما سيحمله لنا المستقبل من أخبار حرائق ونيران. كنتُ منتشية بأغنية "سلطان حبّك" عندما دخلتُ أخيراً العاصمة من جهة الضاحية الشمالية. كنتُ متلهّفة للعودة إلى الحياة التي أسّستها بعيداً عن جذوري الأولى. أجل أومأتُ لنفسي، أخيراً تحرّرتُ وفهمتُ أنني بذرة قُذفت في تراب هذا العالم وعليّ أن أواصل شق طريقي وحدي نحو السماء.

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء البرنامج، يمكن القول إنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.